الفصل الحادى والسبعون
بعد توديع ولاية إبريم توكلنا على الله فتوجهنا صوب فونجستان

بيان بمنازل وقلاع وبلاد وقصبات فونجستان

مضينا على شاطئ النيل فى أول الأمر ولكن النيل فى هذه المحلة يمضى متعرجًا، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة وادى حلفه، وقد أقمنا خيامًا هناك مع ثمانمائة رجل، وكنا ضيوفًا تلك الليلة فى هذا الوادى إن وادى حلفه سهل معشوشب، وعلى شاطئ النيل فى ظل شجرة جلست أنعم بالراحة، وعلى ضفتى النيل فيها صخر أملس، ومنها رأينا شلالات لا تمكن السفن من العبور، ثم رأينا فى يوم آخر سفنًا كبيرة وهى تجرى، وغادرنا وادى حلفا هذا وعلى شاطئ النيل فى الشرق والغرب جبال وأدغال وأحراش مخوفة، فطوينا مراحل فى أرض كثيرة الأشجار وكثيرة الوحوش، وقضينا فى ذلك ثمانى عشرة ساعة، ولم نشاهد الشمس ستة أيام، لأننا كنا فى غابة أشجارها مثمرة وبها أشجار متقاربة من السنديان والسنط فهذه الأشجار حجبت عنا الشَّمْسَ ولكن ليس فيها أثر لأشجار بلاد الروم، وفى اليوم السابع بلغنا قلعة صاى.

أوصاف قلعة صاى

هى آخر حدود ممالك آل عثمان، وبناها أبرهة فى جزيرة واسعة بنهر النيل، وقد توارثها ملوكٌ بعد ملوك، وقد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ بقيادة الأسود بن مقداد، ثم استولى عليها الفونج وفى عام ٩٣٥ وفى عهد سليمان فتحها أوزدمر بك، وهى قلعة حدود بناءً على معاهدة أبرمت مع الفونج، وقد وفا ملك فونجستان بعهده إلى يومنا هذا فما استولى عليها مخالفًا لما تم الاتّفاق عليه، وبما أنها واقعة على نهاية الحدود فإن المتمردين من فونجستان وبربرستان لا يكفوا عن مناوشاتهم، وفى هذه البقعة يبدو النيل كأنه بحيرة واسعة، وهى تبدو حصنًا حصينًا من الحجر الأسود مربع الشكل بناه شداد، وفى البداية بعد طوفان نوح بناها الملك صاى بن مصرايم بن نقراوش وعمرها من بعده كثير من الملوك وبها الآن بابٌ من الحديد يطل على النيل، وقد أحضر أوزدمر باشا

هذا الباب من بلاد الحبشة، وعلى عتبة هذا الباب صورة على الحجر الأسود لأبرهة، وكأنه حى ولما دخلت هذه القلعة حُيِّيتُ بإطلاق طلقة من مدفع، وقد رددت الجبال دوى طلقة ذلك المدفع التى حُيِّيتُ بها، ومضوا بى إلى رئيس القلعة فجلست معه ولله أحمد أنى رأيت رجلاً روميًا، وقال إن أعيان الولاية أكرموك، وبعد ذلك قدمت إلى رئيس القلعة وقائد الفرق المصرية السبع كما قدمت إلى أعيان القلعة رسائل كاشف إبريم، ورسائل حاكم جرجا، وفرمانات الباشا فزادونى تعظيمًا إلى تعظيم، ثم تجولت سيراً على الأقدام لأشاهد القلعة والمدينة، ورئيس هذه القلعة هو من متفرقة مصر وله مائة وخمسون جنديًا وثلاثمائة مستحفظ من فرق مصر السبع وفرقة موسيقية، وفى كل عام تأتى مؤنتهم ورواتبهم من جرجه، ولهم بارود أسود ومدافع، وليس فى القلعة شيخ إسلام ولا نقيب للأشراف، ولها قضاء يدر ستمائة أقجة. وبعض المحلات ألحقت بقضاء إبريم، ويأتى نائب فى سفينة تحمل المؤن كل خمسة أشهر، وفى القلعة خمسمائة بيت صغير من القصب والحصير، كما أن بها جامع السلطان سليمان خان، ومسجد أوزدمر، وليس بها خان ولا حمام ولا مدارس ولا زوايا ولا مكاتب للصبيان ولا سبيل، وفيها عشرة دكاكين وبها ثلاث مقاه وثمانى حانات للبوزه، ولكن فيها بوزه مصفاة نقية وخارج القلعة مائة وخمسون بيتًا من حصير ليس فيها حدائق، ولكن فيها كثير من البساتين، وفيها لذيذ من الشمام والبطيخ والخيار وعبد اللاوى وفيها نخيل هنا وهناك، وفى هذه الولاية تنشعب من النيل ترع وفى الصحراء يقيم عرب حلفا وهم يزرعون الذرة والكيلة تنبت عندهم مائتى كيلة وتربتها خصبة، وعرب حلفا هؤلاء قوم قبيحة وجوههم عابسون لا مذهب لهم وفى بعض الجهات يعلنون عصيانهم وتمردهم، ويحاربون عسكر قلعة صاى.

وفى كل المواقع صحراء فيها الأسد والنمر والفيل ووحيد القرن والغزال وتيس الجبل والعقاب والثعبان وأنواع الحُمُرِ، إنها مفعمة بالوحوش المخيفة حتى إنه يوجد داخل القلعة ثلاثة أسود وكل منها كان أسدًا أسود له جثة الفيل، وأنا لم أشاهد السباع، وأثناء انحسار ماء النيل يعبره العَرَبُ بالجمال، إلا أن ما فى جوانب القلعة الأربعة عميق ولا

يمكن عبوره على الأقدام، إن جو هذه البلدة جميل صيفها وشتاءُها معتدلان، وإذا ما نام الإنسان ليلاً وجد العمر الطويل لأن ريح النسيم لا تأتى إلى هذه البلدة حتى أرض حاسانكه ومدينة بلبيس والعريش ومنها لا يهب نسيم الصبا ولكن تهب ريح تياب وملسى. ولكن لا يؤثر فى هذه القلعة ريح النسيم، وللنباتات والرياحين ريح طيبة تفوح وترد على متنسمها روحه، كان فيها الفتيات والفتيان متميزين بروعة الجمال، وإذا ما وقعت عليهما عين إنسان سَرَتِ الرَّجْفَةُ فى جسده، ولطيب هواء هذه البلدة لا يصدأ فيها الحديد وساحرات صحاريها لهن شهرة تطبق الآفاق، وكم من غريب رومى سحرنه، والساحرات فى إبريم أقل منهن فى بلدة أزرق جادو اللهم عافنا إنهن فى هذه المدينة يسحرن الرجال حميراً وكلابًا ويطيرن الجرار والأوانى فى الهواء وحاكم قلعة صاى تحت حكم فونجستان وليس فيها غلمان من الروم إلا ما يجلبه النخاسون، وودعنا المستحفظون الباقون فى القلعة ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع ولا تأمنون عادية اللصوص من الزنوج، وبسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لا يدخلنى مطلقًا، لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقد حفظت منذ أربعين عامًا وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة، وأنا مقتنع بذلك كل الاقْتِناع وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا وأنت لا تحمل هدية فأنا لا أرد جوابًا، وماذا أصنع بالهدايا التى لملك فونجستان وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودَعَوتُ الله أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك فأحمد الله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقًا لأرحل، وألححت فى الدعاء فقالوا لى لا تنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة فقالوا لى على الملأ: إذا دخلت القلعة فإن جنودها من الروم سوف يقتلونك، ونحن لن نعطيك رسالة ولا رفاقًا البتة، وقرروا أن ذهابى لغير إياب، فدخلنى من ذلك خوف شديد، وتصورت ما سوف

ينزل بى من شدائد وبلاء ولـكن لا بد من الذهاب فحملت خمسين هجـينًا بالمتاع ومعى اثنين من حاملى البنادق الشجعان، وحملت أربـعة جمال بالمؤن وهبنى أعيان القلعة ذلك كله، وقد أوصى شيخ النخاسين فى بربرستان وتجار الفونج على، وأنى من طرف الباشا أغا وإذا ما أصابنى سوء فـسوف يكون ذلك وخيم العاقبة كمـا أنهم حذرونى من أن أثق فيهـم وحذرونى من الغـفلة حتى فـى وقت أداء الصلاة فـلا بد أن يكون حولـى جنودٌ للحراسة وأن يحملوا السلاح ليل نهار.

جاء فى جميع التواريخ العربية وتواريخ الـصابئة أن مدينة صاى مدينة تقع فى حدود أسوان وبعـد الطوفان أنشـأها كاهن يـسمى رَهْوَان هنـدى وآثار أبنيتـها ما زالت مـاثلة للعيان، وهذه الآثار تثير دهشة مشاهدها وكأنها ليست من عمل البشر، وفى هذه المدينة مرآة صنعت من عدة معادن فمن قصد هذه المدينة من الأعداء أحرقتهم، ومن أجل ذلك لم يغر على هذه المدينة أعداء بغاة طغاة.

مدح حديقة إرم رَهوان الهندى

وبالقرب من هذه المدينة بجزيرة فى النيل حـديقة تسمى حديقة رَهْوَان هندى، وكأنها جنة رضوان وقد نبت نباتها دون زرع، وبه أشجار غـريبة وثمار عجيبة وأطيار تغرد وفى السحـر ترفع كل الطيـور أصواتها الحزينـة فيدخل السرور قـلب الإنسان، كما أن فـيها حيوانـات أليفة لا يعلـم عددها إلا الله، فيا عجـبًا لهذه الحكـمة، وكانت تابعـة لأربعة حكماء اثنـان منهم من ولاية بربرستـان والآخران من ولاية الحبشة وبها أربـعة ترع اثنان ماؤهما له مذاق التـمر الهندى وماؤهما مفيد ومسـهل للهضم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. وفى طرف مدينة صاى أحجار صـفراء اللون مستديرة فى الجبال ويسمون الحجر منها عين الصنم وهى أحجار مـصقولة مجلوة ويقولون إنها عيون أصنام رَهْوَان الـهندى. والعـرب يضعون هـذه الأحجار فى المـاء ويشربونـه وفى طرفة الـعين يسكـرون وهؤلاء هم قوم كنوز، ولـكن على حد قـول أهل هذه الديار فإن حـجر عين الصنم موجود فى جبال مدينـة تنيس فى الحبشة والبرتغاليون يشوبونـه بالماء فيصير شرابًا خاصًا لهم ويقدمـونه هدايا فى ولاياتهم، إن شراب الذرة لا يتخمر ولـكنه مسكر، وقد

خرجنا من قلعة صاى فى رفقة من أحد عشر رجلاً من الفونج والبربر ورافقنا أهل القلعة ساعتين، ثم ودعناهم وقد حذرونا من مرض يصيبنا هناك ثم عادوا إلى القلعة، ومضينا فى صحراء على شاطئ النيل، فى طريق مستقيم مع الجند وعبرنا بقاعًا لا ماء فيها حتى وصلنا ماغرات:

أوصاف ولاية فونجستان وقلعة ماغرات زاغستان

إن هذه القلعة تحت حكم حسين خان ويسمونه فى هذه الديار الوزير وقد فتح هذه القلعة أوزدمر بك على عهد الطواشى سليمان باشا والى مصر، ثم استولى عليها أهل الفونج بعد أربعين يومًا وما زالت إلى اليوم فى حوزتهم، وحسين بك من عرب كلابش، ومن أتباعه سبعة عشر ألفًا من المحاربين وهم يسكنون خارج هذه القلعة وتحت حكمه سبعة عشر قلعة ويسمى حاكم فونجستان دلكير، وهو يتبع وزير مصر، ولكنها الآن تابعة لمن يسمى يرار بك ويحكم تلك المدينة الآن من قبل حسين بك عطاء الله خان، ولدى حسين بك خان رسائل من قبلنا، وقد قدمنا إليه من طرف حاكم إبريم وصاى هذه الرسائل التى من أعيان إبريم وأعيان قلعة صاى وقد قبلها ووضعها على رأسه، وأرسلنا إلى خان القلعة، وأهدى إلينا سِنَّيْنِ من سن الفيل، وقدم معنا من قلعة صاى مائتان مِنْ مَنْ يركبون الجمال فسلمناهم سن الفيل، وقد عاد هؤلاء إلى القلعة بما يحملون.

وقلعة ماغرات قلعة صغيرة مربعة الشكل تقع على الشاطئ الشرقى للنيل، وفيها أربعون أو خمسون بيتًا من حصير، ولهذه القلعة بابٌ من خشبٍ ينفتح على الجنوب وليس فيها سوق، وفيها سبع أو ثمانى حانات للبوزة، وجامع صغير المئذنة، وقد أدينا صلاة الجمعة فيه، وقد ذكروا فى الخطبة اسم ملك الفونج، وأهل الفونج مسلمون على مذهب مالك وأرسل الحاكم فى الصباح إلى مائة رفيق مسلحين بالحراب ويركبون الجمال، وكثير من خبز الذرة، والخراف المطهوة، وبطيخًا، وتمرًا، ومضينا على شاطئ النيل فى غابات أشجارها السنديان والأبنوس وهى أرض جبلية كثيرة الأحجار حتى تناره:

أوصاف قلعة تِنَارَه

وهى تحت حكم حسين بك حاكم الفونج، ولها قضاة من الزنوج، وكانت مدينة عظيمة فى سالف الزمان، وقد تركنا جميع رفقائنا عند جزيرة قريبة من الشاطئ الغربى للنيل وهم الذين كانوا على الضفة الشرقية للنيل فعبرنا إلى القلعة فى سفينة، وبلغنا حاكمها وهو رجل صالح أسمر الوجه واسمه صالح كذلك، وسلمنا إليه رسالة رئيس قلعة صاى فسر لذلك وأرسل لنا المؤنة وكذلك العلف لخيولنا، وفيها قلعة حصينة قائمة على الصخور بناها شداد وهى قريبة من الشاطئ الغربى للنيل، وتقدمنا فى سيرنا، وبدت القلعة كأنها جزيرة على الصخور، ولها باب ينفتح على الجهة الشرقية وعليه صورة أسد وحاكم القلعة له ثمانمائة من الرجال المحاربين، أما رعاياه فأربعون أو خمسون ألف من العرب سود الشعر، وهم جميعًا مسلمون من أهل التقوى يؤدون الصلاة ومذهبهم هو المذهب المالكى، وثمة جامعان ومحكمة ومقهى وسبع حانات للبوزه، وهم لشدة الحر عراة ومنهم من يلفون فوطة حول خصورهم أو يضعون إزارًا على ظهورهم، ويلبس حاكمهم قميصًا أبيض البطانة وفى هذه المدينة يكثر سن الفيل وقرن وحيد القرن ويصيدهم الصيادون، وفى الجانب الشرقى من النيل زنوج سود يأكلون لحم الجمال ويشربون لبن النوق، وبعد مرور تسع ساعات بلغنا قلعة سه سه.

أوصاف قلعة سَه سَه

هى قلعة حصينة تقع على الشاطئ الغربى للنيل، ومكث رفقائى فى هذا الشاطئ وعبرت النيل فى قارب ووصلت إلى الحاكم وهو أسمر البشرة يسمى حسين بك وقدمت إليه الرسائل، وقد عظمنا وكرمنا، وهذه القلعة قائمة على الصخور وقد بناها شداد وبداخلها مائة بيت من قصب، وليس فيها مدافع ولكن فيها مجانيق وقد رجوت أن يسمح لى بمشاهدة هذه المجانيق، إنها تقذف أحجارًا يزن الواحد منها ثلاثة قناطير فيطير فى الهواء كأنه النسر، ولقد أطلق منجانيق حجرًا فسقط الحجر المقذوف فى بستان فى المدينة، وارتفع ثانية فبلغ الجانب الآخر للنيل، ولهذه القلعة قاعدتان عظيمتان، وعليهما نخلتان شامختان وقد علقوا فيها أربعة حبال من جلد الفيل، وفى أعياد الروم يصنعون

الأراجيح للصبيان على هذه الحبال، وبهذه الحجارة فى تلك الحبال يهلك الأعداء، وقد وضعوا على أعمدة المجانيق كثيراً من الحبال وهم يدفعون الحجارة المعلقة فى الحبال فتصدم العدو صدمة عنيفة يكون بها من الهالكين، وفى خارج القلعة أشجار الدوم ويحملون المجانيق على ظهور الجمال إذا خرجوا محاربين وهذا يعدّ مشهداً عجبًا، وفضلاً عن ذلك لهم أسلحة أخرى هى السهم والقوس والسيف والمقلاع والمزراق والحربة متعددة الأسنة، كما يستخدمون التروس من جلد الفيل ولهم خيول قصار وفيلة، ولكن جمالهم كثيرة والرجلان أو الثلاثة يركبان المدفع، وليس لهم بنادق، ويتبع هذه القلعة أربعون أو خمسون ألفًا من الزنوج سود الوجوه والشعور، والرجال عرايا أما النساء فمستورات، ولكنهم يواظبون على أداء الصلوات فى أوقاتها ولهم جامعان وسبع زوايا وستة مقاه وستة حانات للبوزه، ولا أثر فيها للأسواق ولكنهم يقيمون سوقًا عظيمة خارج القلعة فى كل أسبوع، وهذه القلعة قريبة من الحبشة وشرق القلعة أرض جرداء يغمرها ماء النيل وبذلك تبدو فى الماء جُزُر وجزر، كما تبدو فيها قلاع وكلها تحت حكم كور حسين خان ولهذه القلعة من العرب خمسمائة وخمسون جنديًا مسلحين بالحراب وتجاه النيل فى الضفة الأخرى قلعة مستديرة الشكل هى قلعة نازنارنته.

أوصاف قلعة نازنارنته

إنها قلعة منيرة مستديرة فى جزيرة فى النيل بناها شداد وهى كذلك فى حكم حسين خان وهو يملك خمسمائة جندى، وقد تجاوزنا هذه القلعة ومضينا على شاطئ النيل خمس ساعات وتجاوزنا خط الاستواء وسِرنَا فى أرض شديدة الحر ولا وجود فيها للأشجار ومضينا بمقدار سبع درجات.

أوصاف معدية خفير الصغيرة

إنها حصن صغير فى غرب النيل والسفن التى تعبر إليها تدفع رسومًا وفيها مدافع وعندما تنحسر مياه فيضان النيل يمضى العرب إلى جزيرة سه سه على الجِمال ثم يمضون منها إلى قلعة المعدية، ولم نَمْضِ إليها ولكن مضينا على شاطئ النيل واجتزنا بأكواخ من القصب، ومضينا فى الطريق ثمانى ساعات وبلغنا قلعة حفير.

بيان قلعة حفير العاصمة الكبيرة

وأرسلنا طليعة رجالنا إلى رئيسها الخان دائم الدين فخرج إلينا واستقبلنا بألف فارس ثم عبرنا بمائة سفينة إلى الجانب المقابل من الشرق إلى الغرب، فقصفت القلعة بالمدافع، ومكثنا فى قصر صاحب القلعة كور حسين بك، وفى الجانب الغربى من هذه القلعة بناء مثلث الشكل وهذه القلعة منيعة، إنها مقر كور حسين بك، ويقولون إن أول من بناها هو عنترة فعلى بابها المفتوح على النيل صورة زنجى على ظهر فيل ويقول أهل البلدة إنها صورة عنترة، إنها صورة صنعت قديمًا وداخل القلعة بيوت صغيرة وكبيرة من القصب وفيها عشرون محرابًا، وأهلها جميعًا من المسلمين المتقين على المذهب الشافعى، وفى سوقها جامع الملك سيف الدين خاقان، وجامع الملك حارث خاقان وجامع الملك تبع خاقان وجامع حسين بك الذى بُنِى حديثًا، إنها جوامع صغيرة، ومنائرها قصار وليست مزخرفة، ويذكر فى الخطبة اسم الملك الخاقان ثم اسم خادم الحرمين ثم قيصر محمد، وفيها خمسون زاوية ومبرة، ووكالتان صغيرتان وستة مكاتب، وعشرون سبيلاً وحمام صغير، ومائة دكان وعشرة مقاه، وعشرون حانة للبوزه، وكل الدكاكين مفتوحة ليلاً ونهارًا، وفيها الأمن والأمان، ولهذه القلعة سبعمائة جندى وخمسون ألف بربرى وأهلها يشتغلون بالزراعة، وقد رأينا فى هذه المدينة خبز القمح، ويوزع علينا الحاكم دائم الدين خان فى كل شهر مائتى رغيف وخروفًا وسمنًا وجَرّة من العسل ولحمًا وشعيرًا وأكثر محاصيلها هو الذرة والتمر وفى بساتينها يكثر البطيخ والشمام ولهم خيول صغار الحجم، وقطعان الإبل فى صحاريها لا تقع تحت حصر وغنمها وعنزاتها وعجولها كذلك كثيرة لا تحصى وكان فى القلعة فيل صغير وكان أليفًا للغاية يلاعب كل أحد.

وصف حفير

وخارج المدينة فى المقبرة ضريح القطب الشيخ ناصر الدين ابن الشيخ نصرت وقد زرنا ضريحه، ولاعْتدال جو هذه المدينة تكثر فيها الحدائق والنخيل، ولكن ليس فيها جميز ولا نبق، وهذه المدينة تقع على بعد ميل شمالى خط الاسْتواء وترتفع عن مصر بمقدار ربع دائرة، ولشدة الحر فيها رجالها ونساؤها سود البشرة، وثيابهم فوطة وأعيانهم

يلبسون شال إحرام ورءوسهم عارية وقد مكثنا فى هذه المدينة ثلاثة أيام، واستراحت خيولنا وجمالنا وقدم سبعة من النجباء على الجِمال ومضوا إلى المحكمة ثم لحق بهم القائمقام دائم الدين وتليت رسائل النجباء فمضى بأمر كور حسين بك إلى ملك الفونج المتمرد مائة ألف جندى وخمسين منجنيقًا وأربعين ألف جمل مع أسلحتهم وأحمال سبعين فيل من الخيام، ولأن هذا لم يكن كافيًا كتب إلى أعيان المدينة يطلب المزيد من الذخيرة ففى خلال يومين جمع ذخيرة مقدارها ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف جندى وقد صعدت بنفسى إلى قلعة حفير.

وصف قلعة قاندى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل بناها وزراء ملك الفونجستان لذلك سميت قاندى، ولها ثلاثمائة حمل جمل من الذخيرة وثلاثة آلاف جندى فاختلطوا بعسكرنا وفى الصباح بعد أن مضينا سبع ساعات بلغنا قلعة ناورى.

وصف قلعة ناورى

إنها قلعة على الضفة الشرقية للنيل أقامها حسين بك وهى فى حكمه، وهى فى شكل مستطيل، ومساحتها ألف خطوة، ولها باب ينفتح على الجهة الشرقية ولكن أسوارها منخفضة وبها ثلاثة جوامع وست منائر قصيرة، وأسواقها صغيرة وبها حمام صغير، وداخل القلعة مائة بيت من القصب، وألف عسكرى وأربعون ألف من الأهالى وقد وزع قائم المقام كمال الدين بك على جندنا ألف حمل جمل من الطعام وستة آلاف جندى. ومضينا فى تلك الليلة عشر ساعات على شاطئ النيل وفى الصباح بلغنا قلعة سندى.

وصف قلعة سندى الحصن المتين

إنها فى شرق النيل على شكل مثلث وهى قلعة حصينة، وفى القلعة سبعمائة بيت من قصب وسبعة جوامع، وأما غير ذلك من المبانى فَخَرِبة، وكل أهْلها مسلمون متقون على المذهب الشافعى، وبها تتم حدود حسين بك، وهى فى حكم دفتر دار ملك الفونج، وثمة سوق ومحاريب وفى السوق سن الفيل وقرن وحيد القرن وجلد الضب

وشجر الأبنوس كأنها جبال مغمورة بالرمال، وهى موجودة ولكن لا قيمة لها، وحاكم هذه القلعة على بك، وقد انطلق فى الطريق ومعه مؤنة يحملها ألف فيل وألفان من الجند أما العظمة لله، أصبحنا عدداً كبيراً وكان الجند من الزنوج يملأون الصحراء والسهل وقد سألنى الحاكم عما إذا كان قيصر الروم لديه هذا العدد من الجند فأجبته ليس لنا من الجمال ولا هذا العدد من الجند العراة ولكن لآل عثمان مدافع كالبحر ولهم عسكر يحملون البنادق وما نسميهم العسكر عراة أكبادهم محترقة يتناولون كسرة من الخبز، وإنهم يمشون كأنهم قطعان من الحمير السود وإنهم غاية فى النحول والضعف، إلى حد أن عظامهم تبدو من جلودهم، ولكن حركتهم خفيفة، وجيرانهم لا يأمنونهم وبلغنا صحراء دانقة.

منزل صحراء دانقه

إنها صحراء مترامية الأطراف وفيها كثير من النباتات، وقد مكثنا فيها وأقاموا خيامهم فيها، وفى وقت العصر ظهرت لنا آلاف من الأعْلام فى الغرب واقتربوا من عسكرنا ببطء، ولعلهم من بربرستان ومذهبهم هو المذهب الشافعى، وقد مضى منهم أربعون ألف جندى مع مائة ألف جمل ليكونوا مدداً لحسين خان وبدأوا فى السير من الصباح حتى الليل، وقد مكث عسكرنا عند بحيرة وامتطينا صهوات جيادنا التى قدمها لنا صاحب القلعة، كما استقبلنى ملك البربرستان، وقد أكرمنا الملك بأن أتحفنا بشال أسود، وخمس عشرة وسادة من الجلد وسجاجيد سود ولما استقبلناه وقف وعظمناه فقدموا إلينا لحوم الإبِل والتمر وخبز الذرة، وأمام خيمته أحرق النَّفْتَ والقطران، وبعد الطعام لم يغسل يديه إنه رجل مكشوف الرأس وشعره عقائص وله خدام سمر البشرة سبحان الخلاق ثم أحضروا لنا حلوى التمر والشراب وقد شربنا الشراب فى كاسات من الخشب، وقد عظمناه برفع أيدينا وبينما كنا نشرب سألنا عن أحوالنا، فقلنا إننا قد أتينا من قبل وزير مصر إلى ملك فونجستان، فقال لا يأتى من قبل وزير مصر إلى فونجستان، رجل أبيض البشرة، فقلنا لنصل إلى ملك فونجستان، وعدنا إلى خيامنا، وفى السحر قرعت الطبول ونمنا فى الصحراء يومًا وليلة، ومضينا بعيداً عن النيل، وفى اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل ثانية، وبلغنا قلعة واردان.

فى مدح قلعة واردان

إنها قلعة جميلة حصينة على الضفة الشرقية للنيل إنها تحت حكم ملك فونجستان وعاصمته وهى مدينة معمورة جميلة للغاية، وبها سبعة عشر ألف جندى من سمر البشرة مائتا ألف من الزنوج والبربر والفونج من حملة الرايات، وهم مسلمون مؤمنون على المذهب الشافعى، وبها سبعة جوامع وأربعون زاوية وخان وحمام وسبع وكالات وستمائة دكان ومكتب للصبيان وسبل، ولكن ليس فيها أبنية على طرز أبنية الروم والعرب، وليست هذه المبانى مزينة، وفيها حدائق هنا وهناك وفيها بساتين كثيرة، ومن شدة حرها تشوى الإنْسان، وجملة أهلها من التجار، ومتى بلغوا بلدًا حملوا السلع على ظهور الجمال والفيلة وعند السير إلى الجهة القبلية تطلع الشمس من خلف الكتف اليمنى، وتقع هذه المدينة عند خط الاستواء فى الحبشة، وعلى الضفة الغربية للنيل أرض مخوفة؛ ولا يسكنها من أحد، إنها صحراء قاحلة وفيها فيلة، وعقبان ووحيد القرن فَسِرنا بمحازاة القلعة، وَصِدْنا الفيل ووحيد القرن وبعض الحيوانات الأخرى فى الكمائن بالأوهاق[1] والحراب.

وقد ألحق حاكم واردان حمل ألفى جمل من المؤنة وعشرة آلاف جندى مع جندنا، ولم نتلبث[2] بهذه الصحراء وقد رأينا بشاعة ما فيها وسِرْنا ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن أخذ منا التعب مأخذه بلغنا ساحل النيل.

صحراء هانقوج العظيمة

إنها تحت حكم ملك فونجستان، وهناك مكث عسكرنا وسمعنا فى الصباح صوت يقول الله كأن جيش كور حسين خان كان فى انتظارنا، وكأن خيولنا وجمالنا مهيأة للتقدم، وقد جاءنى خطاب يأمرنا بالتقدم سريعًا فمضينا فى الصحراء ثلاث ساعات، فوجدنا أنفسنا وسط كثرة من الرجال والجمال، وهم يحملون الحراب والسهام والقسى، والمزاريق ولا يعلم عددهم إلا الله، وتجاوزناهم، ووجدنا أنفسنا فى جيش تفوح من

(١) الأوهاق: الحِبَال ومفردها: وهق.

(٢) تلبّث بالمكان: توقف فيه وأقام.

رءوسهم رائحة ذكية، وهم قوم سمر البشرة فى وجوههم مسحة من الجمال، وقدم للمدد من ملك قرمانقه مائة ألف جندى وتجاوزنا خيامهم، ثم وجدنا أنفسنا فى جنود، وفيهم من يشبهون جنود المصريين والعثمانيين، ورأينا لهم خيامًا تشبه خيام العرب فدخلنا السرور ومضينا إليهم ولهم ألفى خيمة من الحرير الملون وقد انعكست أشعة الشمس على مدافعهم فكان لها بريق يبهر عيوننا، وقد مضيت إليهم غير خائف ولا وجل وتحدثت إليهم بكل أدب وقد استقبلونى عند الباب، وبعد أن تصافحنا وعظَّمته وركعت على ركبتى وقال لى بلسان تركى فصيح مرحبًا بك، فاطمأنت روحى، وكأنه كان يعرف التركية الفصحى فبالقرب من أسوان كانت قبيلة من العرب مقيمة ففرحت بذلك، وقلت: إننا قدمنا دون طعام فقدم لنا الشاى فشرب كل منا فنجانًا من الشاى، وقبَّل كل من قَدِمَ معنا من القلعة يده.

كما أنه وقر ملك بربرستان كل التوقير فى البداية عند مقدمه، وقَبَّل يد ملك الفونج الذى كان واقفًا على يمنته، والتقينا به طبق القانون المرعى ومنح من معنا من الجند المؤن، وقال سوف نمضى لمواجهة العدو فى الصباح بإذن الله، وقلت قدموا لنا الطعام كذلك فقال مرحبًا، وقد قدمت رسائل وزير مصر ورسائل أعيان جرجا ودراو، وصاى وإبريم، وقرأها ملك الفونج بلسان عربى بليغ ففهموا ما تضمنته هذه الرسائل، فوقف فى التو واللحظة وأراد أن يقبل يدى، وأمر وكيله بأن يهيىء خيمة بكل ما يلزم فيها فأقمنا بها، كما أنه كان يحمل عنزًا فى يده فقدمه إلينا كما كنت أحمل إزارًا مزركشًا فقدمته إليه، فلفه حول رأسه فقال لله نحمد أننا تسلمنا هدايا الروم فوقفت ومضيت إلى الخيمة واسترحت فيها ساعة، وقدم إلى خيمتنا بعد أن أصلحها العسكر والخدم، فرفعنا من التراب وأكلت بعض الحلوى التى أحضرها وشربت كوبًا من الشراب وسُرَّ كثيراً لما أحضر إلينا من حلوى وشراب، وأهدينا إليه الحلوى والشراب المعطر فسر لذلك سروراً لا غاية بعده، وقدمنا جميع المؤن على الجند، وصاح العسكر طالبين إلىَّ أن أتقدم، وفى جوف الليل قرعوا الطبول، وقودوا كل الخيام، وكانوا على تمام الأُهبَة، ولما أصبح نفخ فى البوق، وانطلقوا فى طريقهم وطلبوا إلىَّ أن أركب فيلاً فصعدت سلمًا لأركب على ظهره

فتلوت المعوذتين، ومضينا فى الطريق وفى طليعتنا ملك البربرستان ودعا ثلاثة عشر منا لركوب الفيل وعلى ظهر الفيل تناولنا فطورنا وطوينا المراحل وبعد الطعام سِرنَا طاوين مراحل بعيدة وقد امتلأ طريقنا بالعرب، وكانوا يمضون أمامنا زرافات زرافات، وعلى ألف فيل حملت الأسلحة والمجانيق، كما حملت المدافع ألف فيل وحملت الأسلحة والعتاد على ظهور مئات من الجمال، كما أن المشاة كانوا لا يحصون كَثْرَةً ومضَيْنَا فى صحراء على النيل سبع ساعات.

أوصاف قلعة طومبو

إنها فى جزيرة عظيمة فى النيل وهى قلعة حصينة مربعة الشكل وفيها ألفان من الجند وعشرون ألف من الرعايا الزنوج، وفى القلعة جامع وقد مكثنا قبالة هذه القلعة وقد قدم إلينا حاكم القلعة حمل خمسمائة جمل من الذخائر، ولما أصبح الصباح ألحق بنا عشرة آلاف جندى من العرب وقد أهدى إلىَّ حسين خان فيلاً لأركبه فى رحلتنا، فركبنا جميعًا، وقد بلغنا القصر واسترحنا من شدة الحر، وصلينا، ومضينا على ضفة النيل تسع ساعات.

فى تعريف قلعة جلته شوكزاوى

بما أن الشيخ شوكزاوى مدفون فى هذه القلعة لذلك سميت القلعة بقلعة شوكزاوى، إنها على الضفة الشرقية للنيل وهى قلعة حصينة وعاهل الفونج له من الرعية خمسون ألفًا وفى القلعة جامع، ومنها يأتى المدد والذخائر، ولما أصبح الصباح سِرنَا على ضفة النيل عشر ساعات.

أوصاف قلعة حفير فونجستان

إنها بناء على الضفة الشرقية للنيل، وفيها جامع وأسواق صغيرة وحانة للبوزه، وللقلعة رئيس ويقيم بها ستون ألف من الرعايا، وقد قدمت إلينا كذلك الأطعمة ومضينا على ضفة النيل جنوبًا وكان الحر غاية فى الشدة وفى الساعة الحادية عشرة بلغنا قلعة مشو.

أوصاف قلعة مشو

إنها قلعة على الضفة الغربية للنيل وهى تحت حكم الفونج، وفيها جامع ولها قاض

وعدة مقاه وحانة للبوزه، وقبالة هذه القلعة قلعة طومبول، وبها جامع بلا مئذنة، وحاكمها هو ناصر بن طومبول، وطومبول اسم قوم عظام وقد شاهدناها، وعبرنا إلى الضفة الغربية، ومكثنا فيها ثلاثة أيام بلياليها، وقد وزعت الأسلحة على جميع الجنود، وأخذوا أهبتهم للحرب، وفى اليوم الرابع مضينا إلى الجانب الغربى فى جنود لا يقعون تحت حصر، وقد مكثنا عند بحيرة فيله، ويحمل من البحيرة فى كل يوم حمل مائة ألف جمل من الماء، وفى الصباح مضينا، وجملة القول أننا طوينا مرحلة بعد مرحلة فى مدة يومين وثلاث ليال.

صحراء ادريسك

فيها أربع قرى وفيها دارت رحى القتال وفى الصباح كانت المجانيق تنطلق من فوق ظهور الفيلة والمدافع أيضًا تنطلق من فوق ظهور الفيلة وزحفنا نحو العدو، وتلوت الفاتحة وأنا إلى جانب حسين بك، ومضينا فى الصحراء أربع ساعات، وهناك رأينا جند من الكفرة هبطوا علينا من الجبال وكانوا جندًا كموج البحر، وواجهوا جنودنا، ولكننا لم نتقهقر حتى تقهقر العدو إلى الجبال، وتفرقوا فى الصحراء، أما جنودنا فصاحوا جميعًا فى صوت واحد قائلين الله الله، وهاجمونا بالخيول والجمال والفيلة، وقد أطلقوا المجانيق وقد اختلط جنودنا بجنودهم فواجه الجندى جنديًا.

وخلاصة القول أن المعركة دامت سبع ساعات وكانت غاية فى شدتها وضراوتها.

وفى وقت العصر عندما قيل انهدم بيره مخاف اطمأنت قلوب جنود الإسلام وقرت عيونهم أخبر حسين بك بقية جند الكفاح بالمجىء فقدموا وقت الغروب فمضيت إلى حسين بك وقدمت إليه التهنئة قائلاً بارك الله فى غزواتك فرد بقوله هذا من فضل ربى، ولفرط سروره بذل الأموال لنا جميعًا، وفى الصباح ارتحل عن هذا المكان وأمر الجند بالإغارة على عبدة النار، أما غير الجند فبقوا تحت:

قلعة فردانية

ومضى الجند أفواجًا لتخريب ديار عبدة النار ووجدوا فى قلعة الفردانية جميع

الأموال والأرزاق، ودخل القائد المعظم حسين خان مع جنوده القلعة، واستولى على كل ما فى القلعة من خزائن وأمر جنده بالرحيل إلى القلعة، وأقام فى قلعة عبدة النار، ومضيت إلى قصر رئيس عبدة النار ولكن هؤلاء القوم حفروا داخل وخارج القلعة وخربوا هذه القلعة، فأخرجوا ما لا يحصى كثرة من الفؤوس، أى أنهم وجدوا أرض الذهب، كما عثروا على سن الفيل وقرن وحيد القرن والمسك والعنبر والذهب والأقمشة الفاخرة فهى نادرة فى هذه الديار، وأموالهم هى الفيل والفرس والجمل والكبش والعجل والجاموسة وهى كثيرة عندهم لا تعد ولا تحصى، أما ما يستحسنه أهل هذه البلاد فهو ما يأتى إليهم من مصر من كتّان ومن حرير، وقسى ورماح وسيوف وقد بناها كنعان بن نوح الذى ارتد عن دين أبيه ولم يركب معه السفينة، وهذا على حد قول عبدة النار، إن هذه القلعة على ربوة تطل على بحيرة وكل حجر فى بنائها يبلغ فى الطول والعرض خمسين أو ستين شبراً، وقد بنيت على شكل مسدس، وتتألف من طابقين ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها باب يفضى إلى الشرق وفى داخلها بيوت مبنية بالحجر، وفيها عدة بيوت تحت الأرض وكأنها غار الجحيم، وفيها قوم ليسوا من عبدة النار، لأنهم من عبدة الشمس وقد أغرنا على هذه البيوت وقد أخرجنا منها كثيراً من الغنائم، وليس فى هذه القلعة أثر يدل على أنها كانت كنيسة من قبل، وفى وسطها ميدان ويجتمع عبدة النار فى هذا الميدان كل صباح فى ظل أشجار السنط والسنديان والأبنوس ويسجدون وفى جوانب هذا الميدان الأربعة أشجار كأنها الجبال ويحضرون منها الحطب يحملونه على ظهور الفيلة والخيول، ولكن فى بيت النار هذا طائفة الفونج والقرمانقى والقفانى أطفئوا النار وتبولوا وتغوطو عليها، وقد رأينا بعض الأسر يصيحون ويبكون وقد عرفنا أن بيت النار هذا لم تنطفئ فيه النار منذ ثلاثمائة عام، وفى زعمهم أن هذه النار هى النور الإلهى ولكنها لا تدوم وتنتهى، وهذه هى حال بيت عبادتهم، وهذا ما أحزنهم، أما عبدة النار الذين يسكنون تحت الأرض، فليس لهم كنيسة ولا بيت للنار، ولكن على غارهم بحيرة واسعة يطل عليها عمود، وقد حفر فى هذا العمود محراب متجهًا إلى الغرب، وجميع عبدة النار يجتمعون ويسجدون للشمس حينما

تشرق الشمس وترسل أشعتها على شرق هذا المحراب، ثم يرقصون وينصرفون ويفعلون مثلما فعلوا عند غروب الشمس، فهم يقيمون شعائرهم هذه كل يوم، وقد أبطل حسين خان هذه الشعائر، وجملة القول أننا مكثنا فى هذه القلعة شهراً بتمامه، وقد أغرنا ليلاً إلى أسوان على عبدة النار وعبدة العجل وعبدة الفيل وعبدة الشمس وقد غنمنا كثيراً من الغنائم فى كل يوم، وانطلق جنودنا وعادوا بالغنائم من فيل ووحيد القرن وفرس وجمل وحمار وجاموسة وثور وكبش، وعلى كل فيل عشرون أو ثلاثون أسيراً وعلى كل جمل خمسة أو ستة أسرى كما جاءوا بخيول وحيوانات ومن كل ولاية جاءوا بفتيات وفتيان وزنوج، وبعد ذلك فى أحد الأيام من عام ألف وثلاثة وثمانين خربوا قلعة فردانى وكان المسير على شاطئ النيل فَسِرْنا نحو الشرق إحدى عشرة ساعة ومكثنا على ضفة البحيرة، ثم قمنا ومضينا شرقًا فَسِرْنَا سبع ساعات على شاطئ النيل وقد سبق لنا أن عرفنا قلعة مشو ومكث الجند مع غنائمهم على ضفة النيل، وبعد إحدى عشرة ساعة أمرنا بالبقاء فى هذه القلعة على ساحل النيل لمدة ثلاثة أيام، والتفت كُلٌّ مِنَّا إلى غنائمه، ثم مضيت إلى حسين خان وقلت له لله أحمد أنك نلت النصيب الأوفى من هذه الغنائم، ووصلنا إلى مملكتنا سالمين غانمين، ونحمد الله على أنك كنت سببًا فى نيل هذه الغنائم ولقد خدمنا شهرين، فأذن لنا أن نمضى إلى ملك فونجستان حتى نسلمه الرسائل والهدايا، وقد تفكر طويلاً فى هذا مما قلنا له؛ فقال لقد سررت كثيراً لمجالستك ومحادثتك ومصاحبتك ولقد تعشقناك ولكن لنا نصيحة فاقْبلها منا، فأنت من قوم الروم وغريب الديار وأنت الآن ضيف لنا وأنتم مسلمون، ولقد جعلنا ديار عبدة النار خرابًا يبابًا وقد غنمنا من ديارهم الأنعام والأسرى وأخذنا منهم الأسرى ولقد مَنَّ الله علينا بذلك بلا حدود ولا حساب، وقضينا على عبدة النار إلى آخرهم، وسلكنا طريق الفونجستان والبربرستان إنهم قطاع الطريق، وأعداؤنا فى جميع الأرجاء تم لنا قهرهم، فارجعوا إلى ولايتكم وسنرسلكم إلى فونجستان فى الموسم فى السفن، ولتبقى جميع خيولكم وجمالكم عندنا وهذه هى نصيحتى لك وسوف يتيسر أمركم بمشيئة الله ولكن هذه النصيحة لم تصادف رضا وقبولاً، وقد استأت لهذه النصيحة، وصبرت على

تكراره لهذه النصيحة، فقدم رجل ومعه ستار أبيض واضح اللون فألقاه أمام حسين بك وسجد عليه، وقال يا مولاى إن ملك بربرستان قادم فقال له: ليقدم، وسرعان ما فتح باب الحجرة فقدم بربر رءوسهم عارية وقد جلس ملكهم إلى جانب الخان وتعانقا وبعد ذلك حيياهم وقلنا فلنمض إلى ولايتكم، لأننا لا ننسى تسلط العدو علينا، وقد طلبوا من حسين خان المدد لولايتهم فقال لهم على السمع والطاعة ووجهوا الكلام إلىّ قائلين، ولقد يسر الله لك عملك ها هو ذا ملك الفونجستان يمضى فى مائة ألف جندى إلى ولايته، وهو يمضى معهم إلى بربرستان وسوف نسر كثيراً إذا ما أطلعت ملك فونجستان على مطلبه وامدده بما طلب من الجند فقال الملك على السمع والطاعة، وقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدى ولكنى لم أمكنه من ذلك فجذبت يدى، وكأنما كان المحبة لهم دأبًا قديمًا، وكانوا يشترطون لتعظيم أضيافهم تقبيل يدهم، ولله أحمد أنى وجدت رفيقًا عظيمًا، فشكرت الله وقد خاطبنى ملك من ملوك الأرض، فقال فى الصباح امضوا إلى طراود، وقد ودع حسين خان ثم مضى، وذهبت إلى خيمتى واسترحت فيها ساعة فرأيت الخان قادمًا، فوثبت قائمًا لأستقبله وصافحته فأتى إلى خيمتنا وخلفه قافلتان من الجمال تحملان ليف النخيل وفى غرائر سن الفيل وعشرون من العذارى الجميلات الحسناوات السمراوات، وعشرة جِمال عليها عشرون من غلمان عبدة النار وهم سمر البشرة حمر الوجوه وقد وهبنا هذا كله كما وهبنا أفيالاً وجمالاً، وعددًا من الزنوج الأسرى وقد قيدنا الأسرى حتى لا يفروا وقد نصحنا بأن نحذرهم ونحرسهم فى الليل كما منحنا فأسًا من الذهب وعشرة قرون من قرون الثيران وعشرة أقفاص فيها ببغاوات ناطقة وصندوق من المسك وآخر من العنبر وحمل جمل من الكاكاو وبعد كل هذه الهدايا حيّانا بأحسن تحية وقال وفى عودتكم بخير مروا بقلعتنا، ثم مضى إلى مسكنه، وفى الصباح هيأنا أحمالنا ومضينا إلى جند بربرستان وقد أرسل إلينا حسين خان ألف جندى لتوديعنا ثم مضينا سبع ساعات وبلغنا قلعة دفنا.

قلعة دفنا

إنها قلعة صغيرة مربعة الشكل فى جزيرة عظيمة فى النيل وبها كثير من المدافع والفيلة وبها خندق وسوق ولا عمران فيها سوى ذلك وإن كان فيها جامع صغير بلا

مئذنة وهذه تحت حكم ملك بربرستان ووصلنا بكل هذا القدر من الهدايا التى كانت معنا إلى هذه القلعة التى ليس فيها شىء يذكر، إنها فى الصعيد العالى والقوم هناك هزيلو الأجسام لا يزرعون وعلى ضفة النيل ينبت القطن والكتان والبرسيم والسمسم والفول والأرز والعدس، وفى أرضهم الذهب إلا أنّهم قوم عبيد متمردون، وفى الصباح خصنا رئيس قائم مقام القلعة بخمسمائة جندى لأن فى هذه الليلة فَرَّ منَّا زنجيان من عبدة النار ثم بعد ذلك مضينا جنوبًا وسِرْنا على شاطئ النيل وبعد مسيرة عشر ساعات على ضفة النيل بلغنا قلعة أمداج أرقو.

قلعة أمداج أرقو

وهى قلعة واسعة فى جزيرة فى نهر النيل قريبة من الجانب الشرقى وهذه الجزيرة قليلة السكان، وفى الجزيرة غابات أشجار الأبنوس وقدمنا إلى حاكمها الهدايا وسِرْنَا جنوبًا تسع ساعات وبلغنا قلعة بنى.

إنها كذلك قلعة فى جزيرة فى النيل تحت حكم البربر، إنها بناء مربع مرتفع، وقلعة جميلة، وقد أتى إليها الإمام مالك فى سياحة له، وقد شرفوا بالإسلام، وبعد أن اعتنقوا الدين الحنيف وبناء على اقتراح الإمام مالك أقاموا هذه القلعة، وعلى باب القلعة كتابات للإمام مالك بالخط الكوفى، ومقدم الإمام مالك إلى هذه القلعة لأن قطب الأقطاب الشيخ عز الدين كان على قيد الحياة فالتقى به فأصبح فريد زمانه، والشيخ عز الدين مدفون فى هذه القلعة، ولخوفهم من هذا القطب سكن جميع سكان الجزيرة خارج هذه القلعة ولا وجود لإنسان داخل القلعة ومن يدخلها من بابها يخلع نعليه، ولا يستطيع أحد أن يتبول أو يتغوط وهو فيها، ولقضاء حاجتهم يخرجون إلى ضفة النيل فقد بقى بداخله ثلاثة بلا تغوط ولا تبول وهم لا يربون من الأنعام إلا الحصان والجمل لأن نجاسة باقى الحيوانات نجاسة غليظة، ولأنه قطب عظيم ولا يجرؤ أحد فى تلك الجزيرة على أن يفعل السوء أو يرتكب إثمًا أو يظلم أحدًا فهو قطب طبق صيته الآفاق، وقومه من الموحدين، ومؤمنون من أهل التقوى، ويقصده المرضى والصغار ليشفوا من مرضهم؛ فيزول عنهم ما بهم قبل أن يصلوا إلى ضفة النيل، وسِرْنَا ثمان ساعات على ضفة النيل وبلغنا قلعة أرتد.

فى وصف قلعة أرتد

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل إنها مربعة الشكل، وحاكمها زنجى وهو يقدم الهدايا إلى حاكم بربرستان، وهو من أهل القلعة، وسِرنَا على شاطئ النيل لشدة حرارة الجو فبلغنا قلعة أرنش.

وصف قلعة أرنش

إنها قلعة فيها جامع، وبها من الرعايا خمسون ألف إنسان وألف جندى، وهى قلعة معمورة وحاكمها فرجون فهو بربرى ولا يوجد فيها سوق وبعد أن تجاوزناها بخمس ساعات بلغنا قلعة جبرية.

قلعة جبرية

إنها قلعة جميلة وبداخلها ثلاثمائة بيت من قصب، وبها جامع بلا مئذنة كما يسكنها خمسمائة إنسان، ولكن خارج هذه القلعة فى الصحراء وحولها تسكن الصحراء قبائل الجبرية، وكلهم على مذهب الجبر، وليسوا على المذهب المالكى، وهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها الخمسة، ويؤخرون الأذان عن أوقاته الخمسة وأذان الصلاة عندهم بكيفية خاصة بهم أما نحن فنقول حى على الصلاة مرتين، وحى على الفلاح مرتين أما هم فيقولونها فى أوله وآخره، أما نحن فنقولها مرة واحدة فى الأذان وليسوا أصحاب سنة إنهم يصلون خمس مرات فى أربع وعشرين ساعة ولكن أى وقت كان وبعضهم يجمع الصلاتين بالقصر، ويصلون الصلوات الخمس بإقامة واحدة، فهم لا يكررون الإقامة، وهم قوم أكثر العدد على المذهب الجبرى، وعلى مسيرة اثنتى عشرة ساعة قلعة حنَّاق.

قلعة حَنَّاق

إنها قلعة كبيرة مخمسة الشكل فى داخلها سبعمائة بيت من قصب وكل فرد فيها له منزل، وبها جامع وحول القلعة فى الصحراء بدو على المذهب المالكى إنهم قوم زنوج على المذهب الجبرى وعددهم مائة ألف من الرعايا إنهم فى إقليم الفونج وهم أشداء شجعان وليس فيهم من يركب الخيل ولا الفيلة، وخَانُهم الشيخ عشاب ابن ملك الخاقان، أما القلعة فحاكمها هو حسين الفونجى البربرى فقد أتى إلى الملك ومعه الهدايا، وبعد سبع ساعات بلغنا قلعة خندق.

قلعة خندق

إنها قلعة صغيرة على الضفة الغربية للنيل بها جامع ومن بين مدافعها مدفع من الذهب وهى قلعة تشبه الخندق الصغير فى خارجها خندق عميق فى الأرض، ولذلك سميت القلعة بقلعة الخندق، وبداخلها مائتا بيت من قصب ولا يسمح للجبرية بدخولها، ويمشطون شعورهم على جانبين، وهم يحلقون أقفيتهم، وبذلك يعرف أنهم من الجبرية، وأنهم بدو، وقد قدم حسين بك إلى حاكم القلعة هدية من مائة قربة من البوزه وقد أتى علينا عيد الأضحى ونحن فى ضيافة البربر، وبعد اثنتى عشرة ساعة بلغنا قلعة قولى.

قلعة قولى

قلعة على الضفة الغربية للنيل، وبها جامع وثلاثمائة بيت يسكنها البربر ورئيسها سليمان بن بشير، وقد قدم لنا مائة خروف وخمسة جمال صغيرة وسبعون قربة من لبن النوق المجبن وعشرة جمال محملة بخبز الذرة ومنها بلغنا قلعة بقر.

قلعة بقر

إنها قلعة تقع على الضفة الغربية للنيل والجانب الشرقى منها منهدم ويسكنها فقراء من البربر، وحاكمها حسين الفونجى، وقد أهدى إلى ملك البرابرة جوادًا وثلاثة جمال وما غنم ملك البرابرة من فيلة وجمال ومما لا يلزم من أنعام أطلقها إلى صحراء قلعة بقر مع الجمالة والفيالة لترعى النباتات والأعشاب وبذلك ردت عليها الروح، وأهالى دونقله خرجوا جميعًا لاستقبال الملك زرافات زرافات قائلين بارك الله لكم فى غزوتكم وقدموا الهدايا كما وزع على العلماء من مال الغنائم لكل فرد منهم خمسة أو عشرة خراف وقد عرفت من ذلك أن ملك البربر شحيح لقلة ما أهدى إلى العلماء ففى هذه الديار يقدمون عشرة خراف ثمنًا لذراع من الحرير أما الحرير فى جرجه فالذراع منه ثمنه منقرتين، وفى خيمته كان يأكل لبن النوق وخبز الذرة، وعلى الدوام يطلب المتعة، فيطعم ويشرب، ويدمن شرب البوزه فما التفت إلىّ إلا أننى كنت أحسن العشرة.

وفى الصباح لبس جميع الجند البربر ثيابهم النظيفة وقد تزينوا بأسلحتهم وللملك بربرستان جنود يحملون الحراب يحيطون به، وهم يؤلفون جناحًا أيمن وآخر أيسر، فى

انتظام كما كان طليعة جنده خمسين ممن يحملون السهام وقد تغنوا بلغتهم وانطلقوا فى طريقهم، وقرع أتباع الملك الطبول وعلى هذه الحال مضينا سبع ساعات على ضفة النيل.

أوصاف بلاد السودان

وصف قلعة دنقله المدينة العظيمة والعاصمة القديمة لبربرستان

على حد ما ورد فى تواريخ القبط أن أول من بنى هذه المدينة هو نقول بن حام بن نوح ـ عليه السلام ـ، ونوح نبى عاش ألف سنة وبعد أن أنجاه الله من الطوفان جعل يتجول وقد استوطن هذه البلاد، ثم زوج ابنه حام فتاة فولدت له ولدًا اسمه فى العربية دنقل وعلى مر الأيام كثر أولاد حام ونزل نوح وأولاده وقومه ذات يوم ضيوفًا على حام ولحكمة يعلمها وجد الراحة عنده، وانكشفت عورة نوح وهو نائم فقدم ابنه حام فرأى عورة أبيه قد انكشفت فجعل يقهقه ومضى بعيدًا ودلّ على ذلك سام ويافث فأخذهما الخجل لما شاهدا عورة أبيهم وخرّا مغشيًا عليهما من فرط الخجل، وبينما كانا يستران عورة أبيهما بإزار أفاق من نومه وجعل حام الغرير يضحك، ونظر حام الغرير إلى أبيه فسأله نوح عَمَّا يضحكه؟ فقال: إن يافث وسام حدثاه عن انكشاف عورته.

وطلب نوح من الله الملك، وأن يعمر ابنه سام، كما دعا الله أن تملأ ذريته الدنيا، ودعا الله أن يعمر ابنه يافث وأن يكون ملوك الأرض جميعًا من ذريته، ولا تنقرض ذريته إلى قيام الساعة، كما استجاب الله دعاءه بأن يكونوا مرفوعى الهامة فى الدنيا والآخرة، وأن ينتهى نسب جميع ملوك وسلاطين الأرض إلى نوح، وأن نسب جميع العرب والعجم وجميع المرسلين والأنبياء إلى سام ابنه وأن يعمر ابنه حام فى هذه الأرض الشديد قيظها، وأن يكون أولاده فى جزيرة مصر وأنعامه لا تدخل تحت حصر وقد دعوت الله أن يجعل أبناءك فى هذه الأرض يمشون عراة لأنك ضحكت ولم تستر عورتى، وأن يمشوا عراة سود الوجوه إلى أن تقوم الساعة، كما دعوت الله أن يجعل وجه حام أبيض فى الآخرة فأمر الله أن يستقر حام فى دنقل، وأن من ذكر انكشاف عورة أبيه اسود وجهه، وجميع العرب ينتهى نسبهم إلى حام، وقدم نوح مع غير هؤلاء من أولاده إلى مصر وبقى حام المذكور

فى منطقة خط الاستواء وكان له من الأبناء مائة ألف وكانوا سود الوجوه ثم مات حام الأسود وأفضى حكم دنقل إلى أولاده ولأنه بنى قلعة دنقل أثناء حكمه، سميت هذه القلعة ولاية أسوان باسم دنقل ولتخفيف الكلام حذفت الألف فأصبحت أسودان فى سودان وكانت بلاداً عظيمة فى الزمان الخالى، وأساس عمائرها ما زالت ماثلة، ولقد خربها كذلك أبرهة اللعين ولكن تبقى بعد ذلك جزء من قلاعها وبيوتها وعمائرها وقلعتها مبنية بالآجُرّ الأحمر وتقع على الضفة الشرقية للنيل إنها قلعة قديمة لا خندق لها، ولها ثلاثة أبواب منها بابٌ يطل على النيل، وفى داخلها بيوت من الجص تبلغ ستمائة وخمسين بيتًا وهى من الحجر المحروق يسكنها البربر وفيها سبع جوامع وتسع مساجد وستة مكاتب للصبيان، ولا أبنية فيها غير ذلك، إنها تقع على صخرة قائمة، كما أن قصر الملك قلعة، وليس فى هذا البلد بيوت عامرة، ولكن خارجها ثلاثة آلاف بيت للبربر، وبعضها من اللبن وبعضها الآخر من القصب، وفيها عشرة جوامع يدعى فيها لسلطان العثمانيين ثم يدعى بعد ذلك لملك الفونج لأن السلطان العثمانى خادم الحرمين؛ إنهم قومٌ أتقياء على المذهب المالكى، ولا يعرفون الغيبة ولا النميمة ولا سوء الظن ولاسْتقامتهم وحسن أخلاقهم فيجمع خدم التجار من البرابرة، ويسمون الجندى بالبربرى، وهم ستون ألف، أما البرابرة فعددهم ثلاثمائة ألف رجل والبرابرة يشتغلون بالزراعة والتجارة فيزرعون الشعير والذرة ويحصدونها وطعامهم خبز الشعير والذرة ولحم الطير ولحم الجمل ولبن النوق، وبوزتهم جيدة للغاية، ويأكلون لحم القطط فهو عندهم مباح فهم يقولون: (جدى قطه) أى: القط اللذيذ، وإنهم يأكلونه عند الضرورة ويشربون ماء النيل، ويصيدون فى الصحراء الفيل والزرافة ووحيد القرن والغزال وأظافرهم كالمخالب وبها يتناولون الطعام.

وصف الزرافة

إن خدام صاحب بيتنا يحترفون صيد الزرافة، ويصنعون منها الكباب ولكن لحمها دسم للغاية، وطلبوا إلى أن آكله وقالوا إنه حلال إن شاء الله فلم نر لها ذكرًا فى القرآن الكريم، ولا وصف لشكلها ولا جسدها فجلدها مثل جلد العجل ولها عنق طويل كعنق الجمل، ورأسها كرأس العنزة إلا أنه أكبر، وهى تفاحية العين، وأذنها كأذنى الجمل

وعلى ظهرها خطوط سوداء وذيلها كذيل العجل وقوائمها طويلة وحوافرها من شطرين، وعنقها كالمئذنة تبلغ به الشجر العالى، فتأكل من الأغصان كما أنها ترعى أنواع شتى من الأعشاب فى الأرض، إنها حيوان جميل ولحمها ألذ طعمًا من لحم العجل، والبربر يصيدونها بالحيلة وللحم الخراف فى هذه الديار رائحة كرائحة المسك لأن الماء عذب فرات ولذلك تنمو به الزروع المختلفة التى ترعاها ولا يشبهها علفٌ فى بلاد أخرى، كما أن طيب الهواء سببٌ فى جمال النساء فى تلك الديار، ولهن عيون الغزال وسمر الوجوه كأن ثغورهن البراعم، إنهم حقًا من نسل نوح، ولكن الناس لا يلبسون ثيابًا، وإنهم يكتفون بإزار عليهم ويتلففون به ويفرقون شعورهم، ولشدة القيظ كأنهم فى جهنم، وأجسامهم نحيلة، ولكنهم يتصفون بالجرأة والشجاعة، ويتصفون بالبخل والطمع والجشع وهم يتجولون وهم جياع، ويطعمون ما يجدون، إنهم حفاة لا يسترون رءوسهم وحاكمهم هو رفيقنا محمد بن حسين، وهو تابع لملك الفونج، وكان معنا فى محاربتنا لعبدة النار، ولكن بلادهم يسود فيها الأمن والأمان، وإذا ظهر فيها قطاع للطريق بادروا إلى قتلهم، ولا وجود للنقود فى هذه الديار، كما لا وجود لسوق ولا خان ولا حمام ولا مِبَرَّة ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن يوجد بها حانات للبوزه، ومقهى، ولا وجود لحدائق والقردة كثيرة، ولا وجود للفاكهة، ويكثر الشمام والبطيخ فى البساتين ولا وجود فيها للمآذن، وفى أيام الجمعة يحتشد الرعاع، وتقام سوق فى ميدان وسيع ويشترى كل ما يريد من سلعة ويشاهد النخيل فى جهات متفرقة وبين هذه البلاد وبلاد النوبة مسافة طويلة، وفى غرب هذه البلاد مدينة:

مدينة زغاوه

تقع هذه المدينة فى الإقليم الأول، وقد كانت مدينة عظيمة فى قديم الزمان، وكنت فى دنقل أتحدث مع الملك طيلة ثلاثة أيام وأخذت من الغنائم التى غنمها حسين خان حاكم حفير وهى ما أقدّمه هدية إلى ملك الفونجة، والتى أحضرتها إليه، ومن أمواله قدمت ألف جمل وسبعين فيلاً وألف عجل وستة آلاف خروف وخمسمائة أسير من

عبدة النار، ومضيت إلى ما فى المدينة من المزارات ففى المقبرة ضريح الشيخ بن عيسى وعلى ضريحه يهبط فى ليالى الجمعة نور، وفيها كذلك ضريح الشيخ أعوا كما أن هناك ضريح الشيخ أبو بكر والشيخ أبى القاسم.

وفى نفس المقبرة ضريح الشيخ بلبل والشيخ غلام الله، وقد زرت هذه الضرائح وعندما عدنا إلى بيتنا قدم علينا ملك بربرستان، فشرفنا بزيارته لنا فمنحنا اثنى عشر جملاً وفيلاً أسود، وعشرة من الجمالة، وعشرين عبدًا أسود، وست نساء وشمعدان من الفضة، وحقًا كبيراً فيه حجر سيلان الثمين وكأن كل حجر منه ياقوت بدخشان، كما منح كل خادم من خدامنا ثلاثة جمال، وطلب المعذرة، كما عين جنديًا من جنود القلعة لحراستنا فى مسيرنا إلى فونجستان كما قدم إلينا وسادة مخططة وعمامتين وإزارين وقد رقصوا من فرط السرور لأنهم لم يجدوا مثل هذا فى بلاد الروم وقد تقبلنا هذا، ثم مضى إلى قصره فأرسل لنا بعد ساعة خمس من العذارى الجميلات وحمل جملين من سن الفيل وقد أمر القاضى بأن يحمل هذه الهدايا إلى ملك الفونج، وفى الصباح ودعنا الملك وعزمنا على الرحيل، ومضينا على الضفة الشرقية للنيل ثمانى ساعات حتى بلغنا سور طوشى.

أوصاف سور طوشى

إنها قلعة فى جزيرة فى النيل فى الجانب الغربى من الجزيرة وقد سألت عن بانى هذه القلعة فما عرفوه، وهى كذلك كقلعة دنقل لها ثلاثة أبواب، ولكنها ليست قائمة على صخرة كقلعة دنقل، إنها قلعة عظيمة مربعة الشكل، إنها تحت حكم فونجستان وبداخلها بيوت للبربر وحولها حانة للبوزه، وجوامع ولا عمران فيها غير ذلك، ولحاكمها ثلاثة آلاف من الجند وسبعة آلاف من الرعايا البرابرة، وكان أكثرهم معنا فى حربنا فى الفردانية، وفى هذه الجزيرة كثير من التماسيح، إنها تختطف الخراف والعجول والجمال وتجذبها إلى الماء فتغرقها، إنها تماسيح أسوان اللعينة، وطول الواحد منها من أربعين إلى خمسين ذراعًا، وسِرنا على شاطئ النيل فى غاية القيظ لمدة ثمان ساعات.

وادى العفاريت

مكثنا فى صحراء مترامية الأرجاء وفيها من أشكال العفاريت كل عجيب وغريب، إن هذه الأشكال الغريبة على ربوة مرتفعة فى ميدان واسع، وفى جوانب هذا الميدان الأربعة كراسى، وفى الجانب الغربى من هذا الميدان سبعة أعمدة، وعلى ذروة هذه الأعمدة حجر كبير يصل بين هذه الأعمدة ويغطى هذه الأعمدة السبعة، وهو يحمل فوق الأعمدة، ويَقُوم على هذا الحجر تمثال لامرأة من النحاس الأصفر وإذا ما شاهدها إنسان انشقت مرارته وقد ارتفع رأسها ارتفاعًا عظيمًا كما أن غدائرها منتشرة متفرقة، وقد حدقت بعينها فى الشمس فكان لهما بريقٌ شديدٌ، وفى حضنها طفل من النحاس الأصفر كذلك تجلسه على ركبتيها، وكأنها تحتضنه، يا له من تمثال عجيب يلقى الرعب فى القلوب إنها كبيرة الثديين وقد رفعت ذراعها اليمنى وهى تشير بها إلى الجانب الجنوبى من النيل بإحدى أصابعها، والتمثال مصقول، وكأنه من الذهب الخالص، وأمام قدمى التمثال حوض عظيم وقد نحت فى الحجر الصلد مساحته عشرٌ فى عشر، وفى الإمكان أن تجرى فيه سفينة إنه عجيب المنظر، وهذا التمثال الذى يقوم على الأعمدة من عجب أن تسيل دموع من الدم على ركبتيه ويجرى الماء من أظافرها كأنه مذاب منذ ألف عام، وهذه الدموع الدامية إذا سقطت نزلت فى الحوض وأصبحت ماء بعد أن كانت دمًا أحمر، والماء يتغير لونه فى هذا الحوض فى شهر تموز ويصبح طعمه كطعم الكبريت والمرضى يشربون منه مرة فى العام فيتم لهم الشفاء، فيشفون من جميع الأخلاط التحتانية ويحمر وجه من يشربون من هذا الماء، وبعد انقضاء شهر تموز يصبح ماءً عذبًا نميرًا، وقد أكب على هذا الماء مِن مَنْ معنا وشربوا منه لشدة القيظ حتى أفرغوا ما فى الحوض من الماء، وقد شربت منه فنجانا، حقًا إنه ماء زلال وكفار البرتغال يملأون الجرار من هذا الماء فى مدينة زيلع ويقدمنها هدية ويحضرونها إلى الهند وأوربا، ويسقون هذا الماء المصابين بالجذام ومرض الزهرى، وهو نافع من هذين المرضين.

أما الأعمدة التى فى الجنوب فقد كتبت آيات شريفة، والكتابة هى: ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولم يكتب تحتها تاريخ، وقد خطت علامة تحت هذه

الآية وفى الصباح شددنا الرحال، وسِرْنا إحدى عشرة ساعة على ضفة النيل إلى الجنوب، وكان القيظ غاية فى شدته.

وصف حصار كنيسه

على الضفة الغربية للنيل قلعة عظيمة كأنها سد يأجوج، وبانيها هو أزرق جادو وليس فى مَبْنَاها جص إنها مبنية على الطراز القديم، ولكنها حصينة إلى أبعد غاية ولها بابان أحدهما غربى والآخر ينفتح على النيل، إنها مربعة الشكل، وبداخلها مائتا بيت وجامع، وخارجها ألف بيت وفيها سبعة جوامع وزاوية وأربعون حانة للبوزه وأسفل أبواب هذه القلعة قناطر عليها جلد تمساح، والقوم هناك سمر البشرة من البربر وسبب تسمية هذه القلعة بالكنيسة أنه غرب هذه القلعة على مسيرة ثلاث ساعات بنى جامع يشبه الكنيسة لسليمان بن داود، ومحرابه فى جهة الرياح الشمالية ويتجه إلى القدس الشريف ولهذا سميت هذه القلعة بهذا الاسم.

فى وصف الجامع القديم

بجانب هذا الجامع بحيرة عذبة الماء، إذا ألقيت فيها جثة الميت سرت فيها الحياة، وقد حكم سليمان الإنس والجن والوحوش والطيور، ولما كانت تطير رأت فى طيرانها هذه البحيرة فسأل سليمان وزيره آصف عن هذه البحيرة فأجابه يا سليمان إن اسمها «قرجلائقه زيد درسان»، وهى تعنى: بحيرة تخرج من باب الجنة، فأمر نبىّ الله فى التو الريح بأن تنزل جميع مخلوقات الله ومكثوا فى هذا الوادى وتجولوا فى جوانبه الأربعة، وشربوا من مائها العذب، فكأنما ارتدت إليهم روحهم وأمر الشياطين بأن يقيموا له قصرًا شامخًا فى ذلك الموضع وجامعًا عظيمًا، فبنوا هذا الجامع الذى يعجز عن وصفه القلم واللسان، وقد شرف هؤلاء القوم باعتناق الإسلام بعد الهجرة، وولوا القبلة شطر المسجد الحرام بعد القدس.

وخلاصة القول أنه جامع منقطع النظير فى جماله، وكأنما أنشأت يد القدرة أَعْمِدَتَهُ وجدرانه الأربعة، وفى استانبول آيا صوفيا ذو القبة العالية من طابقين وست قباب

صغيرة، وفى وسطه قبة بيضاء تحيط بها القباب من حولها، وفى الليلة التى ولد فيها النبى ﷺ وكانت ليلة الاثنين انهدم «طاق كسرى» «وقزل ألْمَا» وهذه القبة العالية، وفى زمان كفاح النبى ﷺ كان هذا الجامع معبد صنم وظل بناء بعيدًا عدة قرون وفى جوانبه الأربعة نزلت صحف كانت فيها إشارات كتبت بالعبرية عن الأنبياء، ونزلت صومعتهم، وفى داخل الجامع عدد ألف وسبعمائة عمود أحمر اللون ومرتفع مصقول إنه مثل ياقوت بدخشان، ولا وجود لثغرة بين عمودٍ وآخر، ولا نظير لهذه الأعمدة فى المقدس ولا دمشق ولا مصر، ولكنها منها كثير فى الإسكندرية واستانبول وأثينا ولأن سليمان أقامها من أجل بلقيس فهى غاية فى الجمال، وكم من عمود راقد فى الرمال، ومساحة هذا الجامع خمسمائة خطوة طولا وعرضًا فهذا الجامع فى السودان أكبر من جامع الغبق فى مكة، وجامع إبراهيم فى جبل عرفات، وجامع المزدلفة أى المشعر الحرام فى جبل مزج بين عرفات ومنى وأكبر من جامع عمرو بن العاص فى مصر وجامع أمية فى دمشق وجامع آيا صوفيا فى استانبول، لأن هذا بناء الإنس والجن ولذا ما شاهد معمار واسع العلم بالهندسة هذا الجامع إلا وأدرك أن سليمان النبى كان بارعًا كل البراعة فأظهر معجزاته ولقد تجولت ما تجولت فى البلاد فلم تقع عينى على مثل هذا الجامع إنه مكسو فى الداخل والخارج بالرخام وفرش بالصدف الهندى وفى بسطه اللؤلؤ واللازورد والعقيق والصدف والفيروز، وجدرانه فيها نقوش ملونة وأحجار الجدران مصقولة كأنها ورق الصين، وعلى الجدران أيضًا كتابات شتى وهذه الأحجار مصقولة وكأنها مراية، وفى أطراف محرابه آيات من الزبور وهى بخط الوزير آصف بن برخيا وهذه الكتابات على الرخام وداخل قبابه الست أحجار منقوشة، أما منبره فهو يشبه كرسى يصعد إليه من مسافة قدرها ثلاثة خطوات، ولا وجود لمنارة له، ويصعد فيه الأذان على الدوام والأحجار التى خارج الجامع كل حجر منها حجمه أربعون أو خمسون ذراعًا، حقًا إنه من عمل الشياطين لأن هذه الأحجار يعجز عن حملها الإنسان لثقلها ولو وجد هذا الجامع فى أرض عامرة لكان جنة ولكن هذا دُرٌّ يَتِيمٌ، ولكن يجتمع على هذه البحيرة من مصر مئات الآلاف من الناس والحيوان، ويقيمون مئات الآلاف من الخيام على

ضفافها ويقيمون سوقًا أربعين يومًا بلياليها، وحول هذه البحيرة يلتف جمع غفير من الناس والكائنات إنهم يتبركون بالشراب من مائها لأن سليمان ـ عليه السلام ـ شرب منها، وإذا شرب منها المرضى تم لهم الشفاء بمشيئة الله وفى اليوم الأربعين لهذه السوق المقامة عند البحيرة يحمل الماء على ظهور الفيلة والإبل والحمير فى قرب لا يعلم عددها إلا الله وتحمل إلى بلاد الكفر وبلاد العرب، ولا يبقى فى البحيرة قطرة من ماء ولكنها تمتلئ فى العام المقبل بأمر الله، إنه جامع عظيم، أما فى داخل الجامع فالخدم والشيوخ على المذهب المالكى.

أما قصر سليمان فقد تخرب ومكانه مِبَرّة، ولكن القوم ليسوا بنى آدم، وقد شاهدت ذلك وصليت فى الجامع ومضيت فى حمله على الكنيسة، وفى مُضِينا على الضفة الغربية للنيل مررنا بضريح الشيخ دليب وتجاوزناه ثم سرنا ثمانى عشرة ساعة فى شدة القيظ ثم استرحنا فى ظلال غابة من أشجار الأبنوس والسنديان، وبعد مغيب الشمس، بلغنا على الضفة الشرقية للنيل حصن اتقور الحصين.

وصف حصن اتقور

إنه قلعة مربعة الشكل على الضفة الشرقية للنيل، وفى داخله مائتا بيت وجامع وحاكم الحصن يسمى كورجه وهو من قبل حاكم فونجستان، وللقلعة بابان ولا وجود فيها لدكاكين ولا حمام ولا وكالة، وهم قوم غلاظ شداد وليس فى قلوبهم رحمة، وهم سمر البشرة حمر الوجوه فتجاوزناها وبعد ثلاث ساعات بلغنا بلدة أرقى.

بلدة أرقى

ليس لها قلعة، ولكن بها بيوت كثيرة وجامع شديد الضيق وثمة ضريح الشيخ كرام الله الركابى على مقربة منه ضريح الشيخ حاجى ماجد وإلى جانبه ضريح الشيخ حاجى محمود وعلى مقربة منه الشيخ حاجى نَـقُوز إنهم جميعًا يرقدون فى قبورهم الصغيرة، وقد قرأت الفاتحة لأرواحهم الشريفة ومررنا على ضفة النيل بسبع قلاع خربة. ومضينا فى الصحراء إحدى عشرة ساعة فى طريق يخلو من الفيلة والقردة

ووحيد القرن والزراف.

وصف رباط دَفَاره

إنها قلعة جديدة على الضفة الشرقية للنيل على هيئة الأوزه وقد تظلم أهل فونجستان من حاكمهم إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت أيبك التركمانى فأمر سلطان مصر ببناء هذه القلعة ليتحصن فيها ملك الفونج لما كان بينه وبين ملك الفونج من صداقة ومحيطها ألف خطوة وبداخلها جامع وفيها ثلاثمائة بيت للبربر ولها باب من الخشب يتجه نحو الشمال وعليه جلد تمساح ولا وجود على الباب لتاريخ بناء القلعة، وسِرْنا ست عشرة ساعة حتى بلغنا قلعة الملك إدريس.

أشكال قلعة الملك إدريس

إنها قلعة صغيرة الشكل على الضفة الشرقية للنيل فى صحراء واسعة وفيها جامع وسبعمائة بيت وبابها يتجه إلى الشرق وأهلها بربر سمر البشرة وهم على المذهب المالكى، وهم غاية فى التقوى ولم تصدر منهم فتنة ولا عصيان ولا كذب أو طغيان ولا بهتان وهم يمضون إلى مصر للخدمة وهم أهل ثقة، وقد تجاوزناها وبعد تسع ساعات بلغنا قلعة غرى.

قلعة غرى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل وهى خربة ومحيطها ألف خطوة وفيها جامع ولا أبنية سواه فيها، وفى الصباح سِرْنَا على شاطئ النيل ست ساعات وعبرنا سهولاً ذات زروع وبلغنا قلعة خلفاهى.

المدينة العظيمة قلعة خلفاهى

إنها أيضًا على الضفة الشرقية للنيل وبها بيوت وجامع ولا وجود لأبنية أخرى، وجملة أهلها من الزنوج غلاظ الشفاه وهم قوم جبابرة أشداء، ومضينا عنها، وبعد ثمان ساعات، بلغنا ايلغون دنقله.

أوصاف مدينة ايلغون دنقله العظيمة

كانت هذه المدينة فى الزمان الخالى تحت حكم ملك بربرستان ثم تولى عليها سلطان الفونج وجميع أبنيتها من عمل البربر، إنها مدينة غاية فى الجمال، وعندما فتحها الفونج

تهدمت أماكن فيها، ويقـول أهلها إن دنقلة جنتنا فى الدنيا فإن كان لنـا جنة فهى جنتنا ولا حاجة لنا بالجنة، إن جوها ليس بحـار ولا بارد فكأنها إرم ذات العماد، وفى الزمن الماضى كان مَنْ يشاهد أسواقها وقصورها الشامـخة يأخذ منه العجب كل مأخذ، وفيها غرائب وعجائب كأنها أسوان، ولاعتدال هوائها فى بسـاتينها الليمون والسفرجل والتمر وأنواع شتى من الفاكهـة، وأهلها مع ضآلة جسمهم وسواد بشرتـهم إلا أنهم فى صحة جيدة، ولاعْتدال جوها يلد نساؤهم وأنعامهم التوائم على الدوام ولكن شياههم تلد فى العام ثـلاثة حملان إلا أنـها غاية فى ضـآلتها، وفتـياتها يَـبْلُغْنَ مَبْـلَغَ النسـاء فى سن العاشرة، وتلـد المرأة فى شهرها السابع والـثامن، وهم يزرعون الذرة، ولهـم كثير من البساتين والإبل والعجول، ولا وجود فى أرضهم للمعادن، ولديهم حمامات المياه الحارة ويأتى إليها أهل الممـالك المحروسة، ويدخلونها فتشفى أمراضهم فـيصبحون كما ولدوا لذلك فالقوم فى أسوان وفـونجستان وايلغون يتَّسمون بالجمال، وهـذه المدينة تحت حكم ملك بربرستان ولكن زالـت دولته فأصبحت تابعة للفونجستان، ومـضينا عن هذه المدينة وسِرْنَا فى أرضٍ كثيرة الأحجـار والصخور جنوبًا، وبعد مضى ثمانى عـشرة ساعة بلغنا مدينة قوثراى.

فى مدح مدينة قوثراى العظيمة

كانت هذه المدينة على الضفة الشرقية لـلنيلّ وقد ذاعت شهرة مبانيها فى الآفاق ولم يَبْقَ منها إلا سبعمائة بيت، وجامع وثلاث شجرات للدوم، وبعد أن سِرْنَا إحدى عشرة ساعة بلغنا مدينة عدى.

مدينة عِدَىّ

إنها فى حكـم الفونج وركبنا سفينة وعـبرنا من الشرق إلى الغرب، وشاهـدنا مدينة عظيمة وكانت كذلك فى العصور القديمة، ولقد تبقى من عمائرها القديمة بعض آثار.

ولقد كانت مدينة عدى تزدان بالقصور، وفيهـا اليوم ألفا بيت للبربر، إن أهلها على المذهب المالكى ومنهـم على المذهب الجَبْرى، وقد عمرها ملك الفـونج، إنهم قومٌ فيهم

قِحَةٌ [1]، وشيخهم هو الشيخ سعيد جبرىٌ، ويتبعه أربعون ألف من الجبرية ومعظمهم من العيارين، وعلى الضفة الغربية للنيل سبعة محاريب، وبعض الدكاكين ولا وجود للخانات، ولا وجود فيها لحدائق ولا بساتين ولا تمر ولا برسيم، والناس يأكلون الذرة والتمساح والقطط والثعلب وقط الزباد وسمك النيل ولاكلهم لحم التمساح أصبحوا شجعان، إنهم يحاربون بربرستان فينتصرون، ومضينا على ضفة النيل ثمان ساعات فوصلنا:

قلعة حلت الملك

إنها قلعة خشبية على الضفة الشرقية للنيل وبها جامع وستمائة بيت من القصب، فتجاوزناها وبعد خمس ساعات بلغنا قلعة نوجى.

قلعة نوجى

إنها على حدود الفونج، إنها قلعة عظيمة من خشب السنط ولها باب واحد وجامع ومائة كوخ وفى الصباح مضينا عنها وسِرنَا عشر ساعات.

وصف قلعة مدينة أرياجى

قلعة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى فضاء واسع وفى مساحة واسعة، فيها زروع إنها مدينة جميلة، إنها قلعة متينة الجدران ومرتفعة وارتفاعها ارتفاع الشجر ففى هذه البلدة أشجار عمرها ألفى عام أو ثلاثة آلاف، إنها قلعة خشبية بنيت من خشب الدوم والسنط والسنديان والزقوم إنها مستطيلة الشكل ومحيطها ألف خطوة، وفيها سبعمائة بيت من القصب، وفيها جامع ولها باب يتجه إلى الشرق، وقناطر بابها من خشب شجر الدوم، ولا أثر للحجر فى بناء هذه القلعة، وفى المدينة ثلاثة آلاف بيت من الحصير والقصب وسبعة جوامع وأحد عشر دكانًا للبوزه وليس فيها حدائق ولا حمام ولا خان ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن فيها كثير من البساتين، وكان يسكن فيها قديمًا وزير ملك الفونج، والآن يسكن فيها جرجيس خان أخو ملك الفونج إن له أربعين ألف جندى

(١) قِحَةٌ: وَقُحَ يَوْقُحُ. ووقِحَ يوقحُ وَقَحًا ووقَاحَةً وقِحَةً قَلّ حياءُه واجترأ على اقتراف القبائح ولم يعبأ بها. ويقال: رجل: وَقِيحٌ وامرأة وَقَاحٌ، وهو وِقحٌ وهى وقِحَةٌ أيضًا. والجمع وُقْحٌ.

وستمائة ألف من الرعايا، وهو ملك على البرابرة، وقد شرفت بلقائه، وقد قدمت الغنائم التى أرسلها كور حسين وكانت فى موقعة فردانية، وبعد السلام عليه سأل عن حسين خان ولقد نقلت الأنباء وسجدت شاكرًا، كما حملت له هدايا ملك البربرستان فَسُرَّ لذلك كما أهدى إلىَّ قارورة من الشراب المعطر، وقميص وسراويل إلا أنه غاية فى البله، وقد أتينا جرجيس خان فلما شاهدنا قام واختبأ فى ركن ونادى الترجمان فقال لى الترجمان (يقول جرجيس خان لماذا هؤلاء بيض البشرة هكذا لعلهم جاءوا يشتكون ممن بيض وجوههم لأنصفهم منه؟) وقد نقل إلى الترجمان هذه البلاهة، فوقعت فى حيرة شديدة، فندمت على تجولى فى بلد فيها ثمانية عشر ملكًا وقرى لا حصر لها لأنى سمعت هذا الكلام، ولكنى بدأت أتكلم فقلت للترجمان (نحن من عبيد سلطان مكة والمدينة وملك ملوك العرب والعجم والروم والقسطنطينية القيصرية السلطان محمد خان، ونحن تحت حكمه ونسكن فوق ترابه وبأمر الله تعالى نعود إلى بلادنا ولذلك فوجوهنا بيض أما أنت وأنتم أولاد حام بن نوح فى بربرستان وفونجستان وسودان وبغه نسقستان وجزيرة مصر، إنهم سود الوجوه والشعور والعيون، فالله خلقكم سودًا كما خلقنا بيضًا، وإلا فإن جلد وجوهنا إن سلخ فإنه سيسيل منه الدم ثم قلت إن الله تبارك وتعالى هو الذى بيض وجوهنا إنه على كل شىء قدير، وقلت ما قلت واعظًا، وقد أخذ العجب كل مأخذ من ترجمان جرجيس خان واتجه بالخطاب إلى من بجانبه قائلا: (أرأيت قومًا بهذه الغِرّة، زادك الله عمرًا يا خان جرجيس لقد رأيت فى مصر كذلك بلهاء، ففى هذه الديار تبدو الشمس فلا قيظ لديهم) فشرد عنى عقلى، ونحمد الله على أنه لم يتحرك وهو ذاهب العقل ثم قام وقدم عَلَىَّ فقمت ووقفت ثابت القدم، ولكن كنت أنظر إلى الخدم وهم مسلحون، وقال لى «أى ثياب تلبس؟» وقال لى «حُلَّ سراويلك»، وألح فى ذلك إلحاحًا شديدًا، وقال: «فلتحل سراويلك لنشاهد إن كان جسدك مثل وجهك»؛ فطاش صوابى وحسرت عن ذراعى ليشاهدهما؛ إلا أنه لم يقنع بذلك وقال: «لا بد أن تحل حزامك»؛ فكلفنى ما لا يطاق، فامتلأتُ غضبًا وخفت أن يطهونى فى الشمس، فجعلت أصيح وأقول أنا من الروم، وقد أتيت من دنقلة، وكلهم لم يقنعوا بهذا وحلوا

حزامى وعرّونى من ثيابى، وقالوا: «سوف نستولى على ما لك من مال»؛ ثم قالوا: «كنا نظن أنك تحمل سلاحًا فى حزامك»، ثم لم ينبث أخو الخان بنبت شفة، وجلس فى مكانه وابتسم ثم ألحَّ فى الرجاء طالبًا منى أن أبقى، وتكلم بكلام ونطق ببعض كلمات، وطلب المعذرة، وقال إننا طيلة عمرنا لم نشاهد رجلاً غريراً مثلك، وطلب منى أن أقبل يده، وقال فلترفع العمامة عن رأسك لنرى علامة فى رأسك للجنون، فقلت إن عمامتنا هكذا فنحن مجاهدون فى سبيل الله، وفى رأسنا علامة لذلك ندفن بها فنحن لا نحل عمامتنا، وكان هذا من جوابى، فأخرج من منطقته عطراً وأهداه لى، وقدم إلى عوداً وعقيقتين ومرجان كما أهدى إلى فتاتين سمراوين، وثمانية من العبيد السود كما أهديت إليه فيلاً عظيمًا فَسُرَّ لذلك سروراً عظيمًا، أما أنا فكنت أعظم منه سروراً، فإن هذه الفيلة تعتلف كل يوم حمل مائة من الإبل وكأنها تشرب نصف ماء النيل، ثم فى اليوم الثالث ودَّعته ثم ارتحلنا على شاطئ النيل إلى فونجستان، وسِرنَا اثنتى عشرة ساعة، وبلغنا قلعة عطشان.

وصف قلعة عطشان

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل وهى مستديرة الشكل، وبها جامع وستمائة بيت من القصب، أما حاكم هذه القلعة فرومى اسمه قره على جلبى، وهو ولد لأم حبشية وبينما كان يمضى إلى مدينة زيلع من الحبشة وقع أسيراً لدى الفونج وهو فى صباه، ولم يطلق سراحه من الأسر منذ خمسين عامًا، وهو رب أسرة، وعلى خلق عظيم ومتصوف، ولقد شاهدنا جامع المدينة وأسواقها السبع والمغنيات والموسيقيين فى حانات البوزه، وفى البساتين التى فى خارج هذه المدينة، الشمام والبطيخ ثم مضينا بعد ذلك.

لقد تجولت فى كل البلاد وتجولت فى بلاد الزنوج خصوصًا، وجزت خلال الطرقات، وبينما كنت فى بستان هذه المدينة كان الفصل فصل البطيخ ولم نشاهد هناك جياداً، ولكننا سمعنا زمزمة بكتاشى، ووقفت وقدم على اثنان من البكتاشية لهما سحنة القلندرية وهما كما ظهر أمامنا بعض الصوفية، وبالسؤال دللنا على الطريق، وبعد أن سلمنا أمسك خدامنا من البربر بلجم خيولنا، وجلسوا، فأمسكت بلجام خيول هؤلاء الصوفية ثم مضينا.

فى وصف وحيد القرن

للوزراء فى الروم جيادٌ مثل دابة الأرض، وهى جيادٌ ضخمة الجثة كثيرة اللحم والشحم، وأما وحيد القرن فجلده يشبه جلد العجل ولكن من أذنيه إلى ذيله شعر أسود ورأسه كرأس الحصان، وعيناه كالتفاح، ومستديرة وكحيلة، وله أذنان كالحصان، وفى مقدمته قرن وهو غاية فى الغلظ وهو مستدير الطرف، وطول جسمه خمسة أشبار وأذناه واسعتان وأسنانه كأسنان الحصان، ولكن له سنتان على الجانبين بارزتان تبدوان كأنهما سِنَّى رمح، وعنقه قصير للغاية، وعنقه وكتفاه يشكلان كتلة واحدة، وله شعرٌ موفور على كتفيه وقوائمه تشبه قوائم الجاموس، وهى قصار كما أن حوافره مشقوقة وذيله فى غلظ ثلاثة أذيال للفرس، وشعره معقوص، وقرنه قوى وهو من القوة بحيث أنه إذا نطح به الفيل بقى فى جثة الفيل لأنه قرن منحرف أنه ينطح الفيل فى عينيه وقوته تكمن فى قوائمه.

التعريف بدَابَّةِ الأرض

تسمى فى العربية البغل فلا فرق بينها وبين البغل، ولكن فى أعلى أذنيها قرنان أسودان معقدان، وطرفهما كالمبضع وحوافرها مشقوقة وفى المذاهب الأربعة حلال أكلها، وهى سريعة العدو إلى حد بعيد، وكأنها غزال وتلد مرتين فى العام، والمولعون بها يركبونها ويجعلون لها لجامًا، ويضعون الإكاف على ظهورها، فلما رأيناها دخلنا سرور عظيم، ووجدنا لحم الإبل ولحم الدجاج، وقلنا إن خير الطعام ما حضر، وسألنا عن أصل وجودها فقيل لنا: كنا ثلاثة إخوة فى سفينة تسير بنا من الهند إلى الحبشة، وبينما كانت سفينتنا تسير بنا استولى كفار البرتغال على سفينتنا، وأوقعونا فى الأسر وحبسونا فى مخزن السفينة، وجرى القضاء بأن يموت أخٌ لنا فشووا لحم جثته وأطعمونا منه، فأكلنا من لحم أخينا طوال شهر واتفق أن تلاطمت أمواج البحر ودفعت السفينة إلى الشاطئ فتحطمت السفينة وفَرَرْنَا إلى جبل مرتفع، واغتسلنا فى ماء حار وصلينا ركعتين لله شكرًا، وتوبنى أخى من أكل لحم ذى روح، ولما ذَكَرَ هذا السبب أجهشنا بالبكاء، ومن الغد جاء هذا الحيوان إلينا، فأنسنا به، وقال بلسان الحال اركبا، فوصلنا بسلامة الله

على ظهر هذا الحيوان بعد سبع سنوات وبقينا بين الزنوج فسخر منا هؤلاء الحَمْقَى، وأكلنا قليلاً من الخبز وخبز الذرة وشمام وبطيخ، وشكرنا الله ولما دخلنا المدينة لم نأكل من طعامها، وقد فضحونا، فسألتهم فى جرأة، لم نأكل من ثمار حديقتكم ولم تقدموا لنا شرابًا من ماء نهركم، فأى البلاد مسقط رأسكم؟ فقالا: إن بلادنا بلاد الروم، وبالقرب من مدينة قونيه، فقلت لقد رأيت بلدكم، وزرت جامع والدة مولانا، وشاهدت مدرسة يعقوب وإبراهيم بك فسرا لذلك، ثم قلت لهما: يا إخوان الوفاء إذا أردتم الخروج بسلام فاتبعونى واقبلوا رفقتى لأمضى بكم إلى مصر بسلامة الله، يدى فى يدكم، فجددوا البيعة لى وقدموا لخدامنا كِسْرَة خبز، وأصبحنا أخوة فى الدنيا والآخرة، وتكلموا معى كثيرًا، وانشرحت صدورهم بحديثى معهم، وغادرنا البستان وبينما كنا فى سيرنا جاء رجل من قلعة عطشان ودلنا على الطريق وشرفنا بصحبتهم، وسألت عن اسمهما الشريف، فقال أحدهما إن اسمه نعمت الله والآخر سيد جار الله، وقالا: إننا لا نقبل جيفة الدنيا، ولم يقبلوا أى شىء، وقالوا خذ الرفيق قبل الطريق وقطعنا المراحل فى شدة القيظ، وبعد عشر ساعات سِرنَاها بلغنا قلعة بقيث.

قلعة بقيت

هى قلعة على الشاطئ الغربى للنيل، وهى من الخشب كما أن البيوت فيها من خشب، وبها جامع صغير مكثنا به، وسِرنَا فى شدة القيظ وقطعنا المراحل سبع ساعات وبلغنا قلعة حلة الركابى.

قلعة حلة الركابى

تقع على الضفة الشرقية للنيل وهى من الخشب، وليس فيها جامع ولا أبنية، وسِرنَا على ضفة النيل تسع ساعات وبلغنا قلعة حلة الجندى ثور.

قلعة حلة الجندى ثور

يسمى حاكمها جندى ثور، وهى قلعة من الخشب، وبها ألف بيت للبربر من خشب وقصب، وبها جامع، ولا وجود فيها لثمر، وأرضها سبخة، ومن القلعة مضينا برجالنا إلى ملك الفونج، وفى هذه الليلة أحضرنا كل هدايانا ورسائلنا وفى الصباح سِرنَا إلى

سَنَّار، وقد أعطانا والى مصر كتخدا إبراهيم باشا جواداً وعبداً لنقدمه لملك الفونج، وهو جواد من المخمل المزركش وثلاثة قسى ملفوفة وإزار من الحرير، وقدمتها إلى خدمنا وقد تزين جميع الخدام بأحسن ثيابهم كما زينت الجياد والإبل، وقد وضعت الرسائل فى حقيبة مزينة وسِرْنا على ضفة النيل ست ساعات وثار الغبار علينا من عصف الريح، وقد استقبلنا من يركبون الفيلة والإبل والحمير، وجاء ملك الفونج فى جمع وهو على ظهر فيل أبيض، وبعد السلام عزمنا على الرحيل، فبدت لنا ثمانون خيمة على ضفة النيل ومن انعكاس الشمس على المدافع بهرت عيوننا، فقال إن الملك خرج لاستقبالكم، وهو فى انتظاركم وقَدَّمَ له جميع الهدايا، ومضينا إلى قاضى بربرستان، ووقفنا أمامه ويدانا على الصدر تأدبًا، وقلت له السلام عليك يا سلطان السودان فى خشوع فقال لى السلام عليكم يا خادم آل عثمان فسلمت يداً بيد وبعد ذلك مضينا إلى سماط، فطعمنا طعام الفونج وغسلنا أيدينا بالماء والصابون فى وعاء، وبعد ذلك قدم عبد أسود فى يده حق، فأخذه ومسح به يديه كما مسح وجهه ففاحت رائحة العطر فانتعشنا، وقدم إلينا العبد حقًا وفيه مسحوق أبيض ولكن رائحته ساطعة فواحة، ورائحته أشد نفاذًا من رائحة المسك والكافور فأخذنى العجب، فناديت ترجمان الفونج، وسألته عن نوع هذا العطر فذكره لى فأسَرَّ الترجمان بشىء فى أذن الملك، فرد الملك علينا قائلاً ليقرأ من معكم الرسائل التى أحضرتموها معكم، وفى نفس اللحظة قرعت الطبول فى الجوانب الأربعة، فقال أنا أقدم فيلاً كأنه دابة الأرض وفى القصر كان سبعة فيالين، وعشرون عبداً، وخرجنا أفواجًا كالجند، ومضينا تسع ساعات على مقربة من مدينة سنار فى الطريق العام ورأينا رجال الملك وهم يسجدون لنا، وبناء على ظهور سنار أطلقت المدافع، وفى دخولنا فى القلعة قرعت الطبول ونفخ فى الأبواق، وحضر جميع أعيان الفونج وكان الملك جالسًا على عرشه فقدمت إليه فى البداية الرسائل، وقرأ رئيس الديوان الرسائل التى بالعربية فجعل يثنى علينا الثناء، ثناء تجاوز فيه كل حد، وقام فيه من عرشه ووضع كفى فى كفه، وطلب إلى أن أجلس على العرش فتقبل الرسائل ووزع الهدايا أمامى ونال كثيراً من القسى والسهام والكؤوس وأعجب بالسهام والقسى والكؤوس، وقال هل يرشق

أحد عدوه بمثل هذه الأشياء النفيسة فأجبته بقولى يا مولاى إن هذه النفائس تليق بك، ولأنها فى الغزوة تقضى على العدو، ولقد أدركت من ذلك أنه شجيع، فأحضرت بعد ذلك جواداً عليه بساط فَسُرَّ به كثيراً، ولقد فهمت لسان الحال وجعل الملك يتأمل هذا الحصان وعليه البساط مدة ساعتين فخرجنا من عنده ومنحنا داراً وبستانًا فيه الليمون والنارنج على شاطئ النيل ودخل معنا جميع خدامنا مدينة سنار فى العشرين من شهر شعبان عام ألف وثلاثة وثمانين.

وصف ولاية السودان وقلعة سنار

ومن الغد فى الصباح اجتمع المجلس ثانية، وقد سلمت الهدايا التى أرسلها معى كور حسين بك، وتناولنا الطعام بعد المجلس وكان الطعام طعامهم المعتاد والزعتر، ولديهم الكثير من النعم منها الكباب والضأن ولحم الغزال ولحم الإبل ولبن النوق بالذرة وهم لا يعرفون طعامًا غير هذا، والأرز والعدس والفول إذا أتت من مصر وجرجا ولكن حين حل شهر رمضان طبخوا الأرز والقرع والقلقاس والقرنابيط ويقدمون فى كل يوم ألف قدر من الطعام، كما قدموا إلى خدامنا طعامًا خمسة أيام، وفى كل يوم مائتى طبق من الطعام السودانى، كما قدموا أربعمائة رغيف من خبز الذرة، ولخيولنا مائتى ربع من الذرة فى كل يوم، وفى هؤلاء القوم رأينا شابًا فقيهًا حلو الكلام أسمر اللون وجيه المنظر ومعتدل القامة وعلى رأسه عمامة بيضاء، ويرتدى قميصًا أبيض كان دائم العبادة مشغولاً بها يحضر الديوان، ويسمع للشاكين وهو يكمم فمه وأنفه، ثم يأتى وهو يستر فمه وأنفه، ثم يأتى المدعى عليه ويقف إلى جانبه، وهو يسجد ويقدم فروض الطاعة أمام الملك والقضاة، إلا أنهم على المذهب المالكى، لأن جميع أهل بربرستان والسودان على المذهب المالكى وقاضيهم يسمى شفيع الدين، ووزيرهم يسمى فين خان، والدفتر دار يسمى دابر خان والكاتب برابى خان وحاكم المدينة يسمى سرمن، وتسمى طائفة الجند عندهم سلام وهم يملكون ثلاثمائة ألف من الزنوج المحاربين وليست لهم رواتب والله يعلم عدد الرعايا، والبرايا، وفى مصر كثير من العرايا والجياع، ولا يعرفون المرض، وهم معمرون ولهم شيخ إسلام على المذاهب الأربعة، ولهم من أهل

الإفْتاء أربعة على المذهب المالكى والحنبلى، ولا وجود لمفتى على المذهب الحنفى، ولهم نقيب أشراف، ولأن بينهم سادات كرام، فإنهم يحضرون على الدوام فى ديوان الملك، ولكنهم لا يبدون رأيًا فى الديوان ولا يلبسون ثياب الحرير، والأعيان يلبسون القمصان والعمائم البيض والفقراء منهم يمشون حفاة الأقدام، وإذا ما استحق شخص ما القتل تشاور الأعيان فى أمره إما قتله وإما تبرئته، وإذا جاء النساء إلى الديوان فللملك حجرة متصلة بالديوان فيقفن وراء حاجز من القصب وهن يعرضن مظلمتهن وفى هذه البلاد يحرم على النساء أن يخرجن من بيوتهن وإذا كُنَّ سبعًا أو ثمانى فلهن دار ضيافة خاصة بهن، ويقدم إليهن الطعام والشراب من قبل الملك ويكرمهن تكريمًا عظيمًا، وولايتهم واسعة الأرجاء، وهى ستمائة وأربعون مدينة وألف وخمسمائة قلعة وأربعون ألف وسبعون جبل كبير وثلاثمائة صحراء وأربعون بحيرة عذبة وخمسون بحيرة أخرى مالحة، وفى أرضهم معادن كثيرة وفى صحاريهم ذهب تحت الأرض، ولديهم طعام يشبه الثعابين وهو سم زعاف، وعندما يجمعون الذهب تقفز جميع الثعابين والحيات، وتبدو الفضة ومعدن النحاس والحديد والرصاص والنفط والقطران وغبار الزجاج والكبريت، ولا وجود لمثل هذه فى بلاد أخرى، كما توجد كنوز لكثير من هذه المعادن وكلها يحصل عليها مجانًا، ولكن لوجودها عند طائفة من الأغبياء، فلا يقتدر على استخراجها، والكلام على هؤلاء القوم يطول ويطول، ولهم كثير من الأحوال تشبه أحوال الخيول، ولا يمكن ذكرها وبعد ذلك بلغنا السودان.

* * *

فى بيان حد السودان

فى الشمال على بُعد أربعين مرحلة من الحبشة، ومن الشرق عشرة مراحل إلى (سلطانه بردو مبيه)، وإلى الجنوب مسيرة شهرين إلى قرمانقه والنيل ينبع من جبل القمر فى قرمانقه. وعلى مسيرة ثلاثة أشهر غربًا إلى بغه نسكى، وفى الشمال على مسيرة ست مراحل إلى حدود بلاد البربر، وأهله يختلطون بالبرابره. وعلى الجانب الشرقى للنيل على مسرى رياح الشمال على حدود مملكة علوى، إن هذه البلاد المتراحبة الأرجاء فيها عجائب وعجائب، وما يلفت إليه النظر، يعجز أقلام البلغاء عن وصفها، إلا أنا نحاول ذلك جهد المستطاع وفى البلاد يهود، وقبط، وروم، ولا وجود فيها للفرنجة والقزل باش وأهل السند والهند، ولكن فيه قومًا من عبدة النار، وهم يذهبون إلى الحبشة ويعودون منها فى تجارتهم، وقد حضرنا فتح ولاية فروانكه، وفيها قوم من المجوس، وهم فى حكم السودان. وهم سمر البشرة وحمرها وصفرها، وأجسامهم نحيلة ما رأيت فيهم أحدًا عليه لحمًا وشحمًا، إن فيهم نشاط كما يحتملون شدة الحر. وهم يمضون عراة الأجسام، ولا وجود فى هذه الديار للجوخ والحرير والمخمل، ولا وجود للعملة الذهبية وقد رأوا آباءهم وأجدادهم على تلك الحال. أما ما يجلبه تجارهم فهو الإبل والغنم والعجول والجاموس وسن الفيل وقرن وحيد القرن، وتروس الفيل وخشب الساج الفونجى والصقنقور والببغاوات، والأبنوس، والسنط، والتجارة عندهم بالمقايضة، إنهم يبيعون ويشترون بلا مال يدفع ثمنًا للسلعة، والذهب عندهم كثير، ولكنهم يصهرونه ولا وجود عندهم لسكة لأنهم لا يعرفونها، وفى جوامعهم الكثير من الخطباء على المنابر يعظون الناس باللغة العربية، ثم بعد الخطبة يدعون لسلطان البلاد الواسعة سلطان السودان السلطان بن الخاقان بن غلام محمد خاقان ابن إدريس خاقان، ثم يدعون لمولانا السلطان محمد خان صاحب الحرمين أيد الله ملكه إلى انقراض الدوران، ويتلون آيتين وإنَّ الله وملائكته يصلون على النبى، ثم يؤذن المؤذن بأذان قيام الصلاة، ثم يصلون ركعتى الجمعة، ويخرجون من الجامع وهم لا يصلون ركعتى السنة، وهذا دأبهم منذ الزمان الطويل، ولا يمكن الزواج إلا بعلم الملك، وهم يُؤذن

لهم بالرحيل إلى جميع البلاد، وهم يعدون ملكهم فى منزلة النبى، وبينما يذهبون إلى الجامع أو يخرجون إلى الصيد يسلمون على الملك ويسجدون له سجود تعظيم وتكريم، ويمضون حاملين نعالهم فى أيديهم عندما يذهبون إلى الجامع مما يدل على تواضعهم الجم.

أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان

إنها مدينة عظيمة وقلعة قديمة على الضفة الغربية للنيل فى السودان وأول مَن بناها الملك خلحا خاقان، إنها قلعة مبنية من الحجر على شكل مربع ولكن ليس لها خندق، وفى خارجها سور من الخشب المحشو، وما شاهدناه فى ولاية إبريم من قلاع صغيرة وكبيرة فما شاهدنا أكبر من هذه القلعة فى شكلها وصفاتها، إنها معمورة، ومزينة لأنها عاصمة فونجستان، ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها جامع الخاقان إدريس، وله منارة واحدة، وفى معظم القلاع التى اجتزناها جوامع بلا منائر، وبها قصر الملك وقصور الوزراء، وبها بيوت مبنية من الحجر واللبن المصنوع من طين النيل وعددها ألفا بيت من القصب وبها بيوت ذات حدائق وأخرى بلا حدائق وقصر يطل على النيل وفى القلعة حمام، وقصر الملك فيه بساتين الليمون والنارنج والبلح وحدائق الورد والرياحين وبها يزدان القصر.

ولا وجود فى هذه القلعة لسوق، ولكن فى خارج القلعة جهة الغرب بيوتًا من القصب والحجر والخشب والحصير عددها ستة آلاف بيت، وخارجها كثير من ساكنى الصحراء وهم زنوج عددهم مائة ألف، ويأمرون هؤلاء القوم بترميم القلعة إذا وجب ذلك ويحضرون لما فى جزر النيل من الكرز والسنط وخشب الساج. ويعمل ذلك على ظهور الإبل، ولكن ليس لهذه القلعة حاكم مثل ما لقلاع الروم من حاكم وجنود، ولكن فيها مخزن للسلاح والبارود الأسود وخمسون مدفعًا وبعض حملة البنادق، ولكنهم لا يجرأون على استخدامها، إنهم قوم جبناء للغاية، وعلى أبواب القلعة إطارات من الحديد لمدافع فى حجم الفيل، وإذا أخرجوا إلى القتال استخدموا هذه المدافع الضخمة بعد حملها فوق ظهور الإبل، وفى يوم رؤية الهلال ويوم العيد يطلقون هذه المدافع، وتزدان الدنيا بمصابيح النفط ودوى الطبول وهم يصعدون ولولةً كأنهم فى احتفال ملكى.

والزنوج من الحبشة والمنـدبية حينما يقدمون للإغارة على تلك المـدينة تقصف المدافع معلنة بمقدمـهم، وفى القلعة ثمانية وسبـعون ألفًا من الزنوج يبقون فى القـلعة ليكونوا مددًا للجيـش، والمندبية تنخلـع قلوبهـم رعبًا من ذلـك، إنهم ليسوا مسلـمين ينكرون الحشر والـنشر، وخارج القلـعة سبعة جـوامع من الحجر، وأربـعون مسجدًا وثلاثـمائة دكان، وهى مـن الدكاكين الصغـيرة، والمقاهى وحانـات للبوزه لا تحصى كـثرة، وهى معمورة مثل أبنية الروم والعرب والعـجم وحلب، وليس فيها خان ولا حَمّام ولا سوق للبن ولا مبرة ولا سبيل ولا مكتب للصبيان ولا مدارس. ففى هذه المدينة لا يوجد فيها بقلة فى حجم الحجـارة وترابها لطيف إلى حد أنه صنع كاسات للعـين خزفية منه، كما أن تربتها خصـبة حيث الكيلة من الذرة تنتـج خمسمائة كيلة، كما أن مـحصول القمح موفور، ولاعتـدال جوها زرعت حدائق فـيها هنا وهنـاك، وفيها الليـمون والنارنج ولا وجود فيـها للحدائـق ولكن بساتـينها كثيـرة للغاية وجـمال نسائهـا وفتياتهـا فى سواد بشرتهم، ولكنهم ليسوا غلاظ الشفـاه ولا عابسى الوجوه كالزنوج، وفيهم عذارى لهن من الجمـال والدلال ما يتـيم القلـوب، سبحان الخـلاق الباقى، فـلهن عيـون الغزلان الكحيـلة والكلام الرقيق والـقوام الممشوق مَن رآهن أخـذ منه العجب مأخـذه. وأهلها يتزوجون عـلى المذهب المالكى وهـذا جائز، أما نكاح المـتعة فممنوع إلا أن عـلماءهم يبيحون ذلك فهـم فى كل أسبوع يتزوجون زواج المتعة، ويدفعـون المهر ذراعًا من البز، وفتيـاتهم يسـرن عراة وإذا أعطوا مرتـبًا قاموا بـالخدمة ثلاثة أو أربـعة أيام، وبعـضهم يخدمون دفعًا للجوع ومعيشتهم ضنك ولكن إذا أخذهم الغضب أصبحوا شرارة من نار وفيهم عناد، وليسوا بلا أصل فهؤلاء قوم بنقلا ودنقله، وأولئك أفنو وبورنو، وقرمانقه وبفه نسكى وهكذا. إنهم ليسو غلاظ الشفـاه، وليست لهم أرجل الفيلة وجسم الغول، ولا عمالقة إن كلامهم رقـيق ووجوههم جميلة وسمر البشرة وأفواهـهم صغيرة وأنفهم كالثمرة وأسنانهم مُنَضَّدَة بيضاء بين شفتين حمراوين ولهم نساء لهن عيون الغزلان وهذا من جمالهن يوقع الرجال فى غرامهن ويزدانـون بالخرز، والخرز عندهم جميل كما أنهم يلبسون الإزار المصرى والإسكندرى، ويلبسون ذلـك من شدة البرد فى الشتاء، ولكنهم

عراة فى غير فصل الشتاء، أما نساؤهم فيلبسن إزار الصعيد العالى والمرط القطنى المنقش كما يضعن فى أذرعهن الدمالج وفى أرجلهن الخلاخيل، وكلامهم بالعبرية منذ عهد إدريس.

اللغة العبرية

الأعداد فى اللغة العبرية:

تلو : واحد	اندى: اثنان	ياصقى: ثلاثة	داقى : أربعة
اوقو : خمسة	أرصقى : ستة	لقار : سبعه	طلور : ثمانيه
تافى: تسعة	راقى: عشرة.		

ومن الشعر الرائع للخاقان:

المصراع الأول:

جيجلقداتى ابله تتانى اجلى قتار قابلى جدان جتام بولاشى

(الجميل سل القوم عنه أنه روح روحى إذا ما رأيته قبلته)

المصراع الثانى وهذا يكون بيت:

قاسقلى جمناج دال بلادى يبله بادى بقبلى مصناح

(وإذا ما احتضنته، وامتصصت شحمة أذنه وعانقت ذراعه الأسود)

البيت الثانى: المصراع الأول:

اجم جى تمناح بملمجى جلطات

(فلا تظن أنى غبى أخذنى النعاس)

المصراع الثانى:

ججلى قلطان للل لتى

(ملكت الدنيا وإذا قال لعبت بها)

البيت الثالث: المصراع الأول:

مزامى لبتى قراجى جبتى صج بولانى قوس جلامى سلحلتى بتى

(تعشقته وهبته فؤادى أكفرت لذلك عشقت منذ زمان بعيد)

المصراع الثانى:

قفان شاهى قليت جاهى خنزيله جاج باتيله حاج تتلتى شاهى

(الملك الخاقان قلت ذلك فى لوم إنه يسكن روحى إنها له قربان إننى بعشقه ثَمِلُ)

وقد لحن هذا فى نغمة البياتى، وغنيت على أصول السماعى وتغنى الرجال والنساء بالأناشيد، وقرعوا الطبول وضربوا الدفوف وملئوا القرع بالحصى ودام سرورهم ليل نهار، وأكلوا البصل والثوم وشربوا البوزه وأنشدوا المربع.

أسماء أهل فونجستان

من أسمائهم إدريس وجرجيس وحمد، وهى أسماء محبوبة ومألوفة وكذلك ناصر وفونقو وأنشومبوا بمعنى سيد، فرما وعدلان بمعنى جندى، وسرهاج وبشير ودانيال ومدللا وحدللا وسلى يعنى سليمان وعبد رى بمعنى عبد الرحمن وفيسبان بمعنى معلم.

أسماء شاه فونجستان

طاغليته، وحجى جى، وقوره وجوضه يعنى حَفَظَه، ونوره حه وارابه وحوشه وغنيه وحليمه وماقنى وأمَنى ونفيسه وشمامه ومشيقه وآشيه وسبيقه وحجه وباره وشو، وجاره يعنى جاريه وحته ومدينه واسانى وحنفه وسما ولغلم أن هذه الكلمات السابقة بمعنى أمهاتنا وأخواتنا ولكن هؤلاء النساء فقيرات للغاية، وتستر هؤلاء النساء عوراتهن بجلد الغزال والغنم والماعز، وهن يمزقن هذه الجلود قطعة قطعة كما أنهن يزين حلاتهن بالخرز، وبقية أجسامهن عارية وهن لا يلبسن ثيابًا لشدة الحر، وقد جئن من دعاء نوح عليه السلام عليهن، وأنعامهم كثيرة للغاية ولكن لا وجود بينها للبغل إنهم يشربون ماء النيل وبوزه الذرة، وثمة نوع آخر من البوزه مسكر للغاية، أنهم يأكلون الذرة، كما أنهم يربون ويأكلون الغنم والمعز والجاموس والبقر والإبل والفيل ووحيد القرن والغزال وبيض النعام والقطط والنعام والأسد والنمر، وهذه الحيوانات تأتى إلى بيوتهم وبساتينهم ويصنعون من جلود الغزال والحملان وسائد لهم، والنساء يزين بيوتهن ببيض النعام، ويشربون لبن النوق المسكر خمسة أو ستة أيام، وأنه يسكر أكثر مما تسكر البوزه، ولكن

بما أن العنب لا وجود له فى بساتينهم ليس لديهم شراب مسكر كالعرق الذى يصنع من العنب، وليس لديهم من المسكرات غير البوزه واللبن والسبب فى أن لبن النوق لا يسكر إسكارًا شديدًا أنهم يضعون فيه جذر نبات الحلفاء فيزداد اللبن سكرًا، إن هذه المشروبات المسكرة تناسب جوهم الحار ولكن شدة الحر لا تـؤثر فيهم وأحمد الله أنى لم أتأثر بها، ونحن نمشى فيهـا كما نمشى فـى أيام الإحـرام عراة الرءوس حفاة الأقدام ونحـن بذلك نتـبع أهل الفـونج، ولم نحزن ذات يـوم مع أتباعـنا لأن نسـيم الصـبا هب فأنـعش أرواحنا.

وماء النيـل فى هذه البقعة مـاء زلال، لأنها تقع على مسـيرة شهر جنوبًا وفـيها من المعادن فى الأرض السـبخة النفط والقطران والـكبريت والحديد والزرنيـخ وفى القنوات مئات الآلاف مـن الأفاعى والحيات والحـيوانات السامـة غارقة فيهـا ويملئون بماء الـنيل القِرب من جلـد الغزال، فيبرد ويصبح قـطعة من الثلج، إلا أنهـم إذا أكثروا من شرب الماء أصيـبوا بالإسهال، وفى هـذه الديار لا وجود للـبراغيث ولا القمـل ولا البق لأن جميع أهل هذه البلاد يدهنون أجسامهم بـالزيت ويرقدون فى الشمس كأنهم الجاموس، والبراغيـث والقمل والبق لا تبـقى فى الأماكن التـى فيها دهن، وهم لا يعـرفون المآثم والمحارم والزنا واللـواط والنميمة، وأمراضهـم الطاعون وذات الجنب والفالـج والرعشة الجسمية والجزام والجمرة والبرص، والحاصل أنهـم لا يعرفون ما الطاعون، وهم يعدونه مرضًا عارضًا إنه فى أول أمره ضعف يصيب المريـض ثم ينقطع عن الطعام والشراب ثم يموت فيدفن، إنهم لا يـبكون ولا يتأوهون، ولكنهم يضحـكون، وقد سألت عن ذلك لماذا لا يبكون، نحـن إذا أصبنا بذلك لم نر عيبًـا فى البكاء، فقالوا: إننا نمـوت جميعًا قضاءً وقدرًا.

وخلاصة القول أنـهم قوم يتوكلون علـى الله إنهم من لم يجد عشـاءه ووجد أكله، وإلا فإنه يمضى جـائعًا، إنهم يصيدون سمـك النيل وبه يسدون جوعتـهم، وإذا وصفنا أحوال وأوضاع السودان كلها تطلَّب منا ذلك كتابًا بذاته.

علم الهيئة والإسطرلاب وربع الدائرة
وبيان ارتفاع البلاد وانخفاضها وطول أنهارها

أولاً خط الاستواء فى الإقليم الأول ويبلغ ولايات بربرستان وعلوستان ودميستان وخط الاستواء عنده يتساوى الليل والنهار، لأنه الإقليم الأول، ولكننا وصلنا إلى السودان وهو على مسيرة ثلاثين مرحلة من منطقة خط الاستواء وإقليم فى حكم مدار الجدى. وقال الحكيم بطليموس إن هذا الإقليم هو الإقليم الأول، وخط الاستواء هو الإقليم الثانى لأن فى فونجستان الليل والنهار يتساويان وإننا على مسيرة ثلاثين مرحلة منها فمضينا إلى وراء خط الاستواء فوجدنا ست عشرة درجة وخمسًا وأربعون دقيقة ومدار يمر فى وسط أسوان، وإلى ما بعد المدار فلم يذكره قدماء العلماء، ولأن هذا الإقليم يخلو من العمران وشدة الحر وأثر السرطان، وقد استولى كفار البرتغال على نهاية جنوب جزيرة مصر، وبنوا القلاع على ضفة النيل كما بنوا المدن ومارسوا البيع والشراء فيها وكانت لهم ولاية بين مدار الجدى والإقليم الأوسط، ولكن لا يستحق هذا الإقليم الكتابة عنه، وعلى طرفى مصر البحر المحيط، والباقى تراب على مسيرة خمسة آلاف ميل من البحر المحيط أرضًا خالية ولكن الطيور تطير فوقه، وتعبره ونرى أناس من طين فيه لأن الأقيونوس والمحيط يحولان دون ذلك.

ذكر الإقليم الأول

على حد قول قدماء العلماء إنه خط على الأرض من الشرق إلى الغرب وسموه الإقليم الأول ولكنه من عند الله، ولقد تجول إدريس ودانيال فى الأرض من الشرق إلى الغرب فأطلقوا على هذا الإقليم الإقليم الأول، ولما مضوا من الشرق إلى الغرب وجدوا أن عرضه اثنتى عشرة درجة وأربعين دقيقة، فقالوا إنه الإقليم الأول، ثم أطلقوا الأسماء على الأقاليم الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ولشدة الحر لم يصلا إلى إقليم آخر لنذكره. فبقيا عند الإقليم السابع، ولكن إقليم فونجستان وسط خط الاستواء توجد ولاية عمران وولاية الزنج وديار الحبشة وبعض المدن القريبة، ولشدة الحر

فيها لا يسكنها الإنسان فما سمياه إقليمًا، ولكن كان ولاية عمران وولاية الزنج كانتا معمورتين من قديم الزمان وسنذكرهما فى موضعهما إن شاء الله.

وعلى حد قول سقراط إن الإقليم الأول الذى عبرناه هو ولاية بربرستان وعرضه أربع عشرة درجة وسبع وثلاثون دقيقة، وأطول نهار فيها ثلاث عشرة ساعة وطول الإقليم الأول هذا من الشرق إلى الغرب ألف ومائتا وخمسين فرسخًا، وعرضه مائة وأربعون فرسخًا وفيه ألف مدينة وخمسون منها زنوج أهلها.

أولاً: جزيرة سرنديب وهند وصغانه وطغار وحرش وفرج أباد وأحمد أباد وديوابا ووختن فى جزيرة الحبشة زيلع ومدينة مقدشو ومدينة زنج وسودان وبربرستان وفى أرض المغرب فاس، ومرانكوش وطنجه وسبته إنها رأس الأقيونوس.

وعلى حد قول بدر وقولون أن فى هذا الإقليم الأول أربعين جبلاً شامخًا وثلاثين نهرًا عظيمًا، وكل نهر فيها كنهر النيل ومضينا فى الإقليم الثانى وفى نهاية مدينتى دمياط ورشيد اللتان تطلان على بحر الروم.

زيارة ضرائح سنار عاصمة فونجستان

أولاً فى المقبرة ضريح الشيخ عيسى، والشيخ بلال وحاجى فوندان، والشيخ ستوان وحاجى ملابه، والشيخ على وحاجى إدريس، والشيخ فرج عاصم، وعلى كرم الدين عدنى، والشيخ جندى ابن خاقان، وجميع الملوك مدفونون فى هذه المحلة، إلا أن قبورهم ليست مزينة، وهم يزورون قبورهم على أنهم ملوكهم القدامى، وقد قرأت الفاتحة لهم، ورجوت منهم البركات ولله أحمد أن دعاءنا قد كان مستجابًا، ومكثنا فى مدينة فونجستان أربعين يومًا وكان رمضان هذا هو الثالث والثمانون على تولى الملك وقد منحنا فى العيد عيدية ثيابًا مزركشة وثيابًا قطنية ومبخرة من الخزف وغرارة من العود وقارورة من ماء الورد وجاريتين حبشيتين، كما منح هدايا لمن معنا وقد أرسلنا إليه فيلين وجوادًا وزوجين من الأكياس بها قمصان وسراويل ودستين من الصوف وعمامة وثلاثة مآزر مزركشة، ثم جاء الملك إلى بيتنا، وتناول الطعام معنا فقد كان لنا مملوكان يجيدان

طهو الطعام، وكنا نقدم إليه فى كل ليلة من ليالى رمضان عشرات الأصناف من الطعام، وكان يطيب نفسًا بتناولها كما كان يحسن إلى غلماننا وكان يفضل الكباب على غيره من ألوان الطعام، بعد ذلك جالب الطعام للإنكشارية وتُجّار الحبشة وأذن للأحباش فطلبوا المدد من الجند، وقالوا سمعًا وطاعة فجيء بألف فارس وألف راكب إبل وألفان من المشاة يحملون الحراب فتحينت الفرصة وطلبت الإذن لى لأكون رفيقًا لهم فاستجيب لطلبى، فقيل لى عَلَىَّ السمْع والطاعة نحن لا نستغنى عنك لحظة فقد ألفناك للغاية، وذلك لحميد سجاياك وبمشيئة الله سوف تتجول فى بلادنا مع هؤلاء الجنود، ومن الغد قدمنا الهدايا وهى عشرون زوجًا من قرون وحيد القرن وعشرون حمل جمل من الشعير والذرة وخبز وخمسون حربة من خشب السنديان وعشرون من تروس الفيل وعشرون زوجًا من سن الفيل وغرارة من المسك وعشر فتيات وعشرة غلمان أحباش وفى يد كل منهم صندوق وفى كل صندوق عنبر ومسك وعقيق وزبرجد وأحجار عين السمكة، وطاووس، ودفعنا الرسوم لحاكم القلعة على ذلك وقلنا إن وزير مصر سوف يقدم من الهدايا غير ذلك.

وقد قدمنا إلى كل واحد إزارًا وعمامة وحملاً من القمصان ومن الغد وصلتنا الهدايا وهى عشرون طاووسًا وخمسون من المماليك السود، وخمسون فتاة سمراء، وخمسون حمل جمل من سن الفيل، وقرون وحيد القرن وعشرون ترسًا للفيلة وألف زوج من السهام ومائة زوج من جلد النمر ومائة زوج من جلد الغرانق، وحمل من الذرة، ومائة حمل من مسك جلد قطة الزباد وعشرة أحمال من الأبنوس، وعشرة أحمال من خشب السنديان وحملان من الذهب وصندوق من المسك وستون شمامة من العنبر وصندوق من نبات ذكى الرائحة وصندوق من عطر البنفسج، وصندوق من دهن السكسبان وحُق من دهن الكبريت، وقد تقبلنا هذا كله، وفى الظهيرة وصلت هدايا كُل من الكتخدا والبوابين للكتخدا والخازندار والمهردار والشيخ العزيز بكرى زاده، وقد سلم الملك ذلك كله إلى أحد الرجال وقد استشرت فى ذلك واشترك الملك كذلك فى هذه المشورة وقيل

لنا إننا سنحمل كل هذه الهدايا فى سفينة سنمضى بها إلى التلال وسوف تلاحظ ذلك لأننا نثق فيك، وسنكمل برأيك وتدبيرك، ومن الغد وصلت مائة سفينة من سفن النيل، وقد امتلأت فى كل مرحلة بمأكولات ومشروبات، فتوكلنا على الله ومضوا لانتظارنا فى قلعة إبريم، وفى يوم سابق على هذا قَدِم إلينا نحن والباشا كل من حملة الهدايا وراكبو الإبِل ورجال الملك وثلاثة رجال من البربر من قبلنا وقد احتفظنا عندنا بما خف حمله وغلا ثمنه، وخرجنا إلى الصيد مع الملك وفى معيتنا ثلاثة وخمسون رجلاً لخدمة الملك وفى ظهيرة الغد خرج ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف من راكبى الإبِل مع الملك من فونجستان للصيد.

* * *